قصص

زياد عبدالله

الوقائع العجيبة لصاحب الاسم المنقوص

براءات المتوسط

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٦ منشورات المتوسط - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Al-waqae'à Al-'àajiba Li Sàheb Al-esm el-manqus *by* "Ziad Abdullah"
Copyright © 2016 by **Almutawassit Books.**

المؤلف: زياد عبدالله / عنوان الكتاب: الوقائع العجيبة لصاحب الاسم المنقوص
الطبعة الأولى: ٢٠١٦.
لوحة الغلاف: بسيم الريس / الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-30-4

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

زياد عبدالله

الوقائع العجيبة لصاحب الاسم المنقوص

براءات المتوسط

إلى بندر عبد الحميد

الوقائع العجيبة لصاحب الاسم المنقوص

١

خمسة خراف، ستة خراف، سبعة، ثمانية. . .

إنه الفجر، أرق الفجر اليومي.

تسعة خراف، عشرة، أحد عشر...

النوم حظيرة، اللا نوم سهول مترامية، الأرق أن تُفتح أبواب الحظيرة وتمتلئ السهول بالقطعان، وأفشل في عدّ الخراف، فتعود السهول خاوية، فأدخل طاحونة اليقظة.

فتح المؤذن كما في كل فجر أبواب الحظيرة، امتلأت السهول بالقطعان، ألقى حمولة صوته الأجش في غرفتي، كما لو أنه قنّاص محترف رابض خلف مكبر صوت موجّه تماماً نحو غرفتي الصغيرة، الإصابة محققة هذا الفجر، الأمل ضئيل جداً في معاودة النوم، ومع ذلك ما زلت أحاول، وتوقي على أشده للقيا مناماتي التي لا تقع لي إلا بعد كل أذان فجر.

دقّت الساعة، أتبعت بنغمة الكناري من دون كناري يلفظه كيانها.

حين وجده أبي مرمياً، لم يعده إلى مكمنه، بل ألقى به في القمامة، فبكيت أمامه، وواصلت البكاء في المطبخ حتى رفع ذقني برؤوس أصابعه، وقال: "لقد طار بعيداً عن الوقت، ملّ ترديده الساعات، ففضّل أن يلتحق بالموت، حيث لا ساعات ولا وقت"، ثم أخرجه من القمامة ومضى به إلى أصيص في الشرفة ودفنه فيه، وسألني أن أمسح دموعي وأقرأ عليه الفاتحة "عسى أن تكون أوقاتك مباركة".

لم تكن أوقاتي مباركة بعد أن هجرني الكناري. مات أبي بعد أحد عشر يوماً من دفنه، وصارت ذكرى والدي ماثلة وهو غائب في القبر مثل صوت الكناري الذي ظلّ ماثلاً في بيته بيت الوقت، وهو في الأصيص. ولم يكن أبي إلا رهين الوقت، يخافه، يخاف كل ما مرّ عليه من سنين وهو يحصّن وحدته ويكثر من التدخين والشاي والصمت. لا شيء في عمله في شركة المياه والكهرباء سوى تسجيل عدادات الاستهلاك، وكم أحرق كل بيت من ماء وكم استهلك من كهرباء، والعدادات مثلها مثل الساعات، وكناري الساعة لا تأبه به أمي. وقد أودعت نفسها في الأقفاص كناريا من لحم ودم لا يعرف الطيران. فراحت تمضي من قفص إلى آخر، من بيت إلى آخر، وهي تعمل خادمة تنظف البيوت وتهرق المياه، وزوجها قارئ العدادات عاجز عن قراءة ما أهرقته، وبالتأكيد ما ذرفته من دموع، إلى أن جفت مآقيها، وتوقفت عن إهراق المياه، وأودعها رجل آخر قفصاً ذهبياً. لم تمض سنة على استقرارها فيه حتى بدأ ذاك الرجل بنتف ريشها. فقد كان هو بلا ريب الصياد الماكر الذي أردى كناري الساعة.

دخلت طاحونة اليقظة، صرت دقيق ذكريات، منثوراً مع مطلع هذا اليوم. يدها وحدها من تلمّني، من تجمع تناثري، وتجعل مني قواماً. كائناً لأكون متى أرادت، والساعات والعدادات تتوقف، وتخلع قضبان الأقفاص، من أجلها وحدها أنهض وأقول "صباح الخير" وقد كان هذا الخير قبلها، يقود إلى معنى واحد لا ثانيَ له، بالتمني أن يمضي اليوم برتابته وثقله، وألا تصيبه مفاجآت لن تكون أبداً سعيدة كعهدي بكل المفاجآت، وألا تصيبه خفة فيفلت مني ويسبقني ولا أقوى على اللحاق به، لكن كل ذلك اختفى عندما عرفت ليلى، كما لو أن الله استجاب أخيراً لأمنية والدي فأصبحت أوقاتي مباركة...لكن إلى حين!

مباركة أنت في النساء يا ليلى، مبارك بك، وحصار اللعنات يحيط بنا من كل حدب وصوب.

تفقدت شرفة البيت وأنا أرتشف قهوتي، لم أقع على أي أصيص، كانت شرفة جرداء، لا من عرق أخضر فيها، ولا على منشرها غسيل، وقبل أن أفارق البيت، مارست عادتي اليومية في تثبيت "لمبة" النور التي في غرة الباب، والتي تطالعني في كل صباح تومض ويهتز نورها، وتكفي برمة صغيرة حتى يستقر ضوؤها، وقد صار أمر نسياني لها مضاءة أمراً اعتيادياً أيضاً، وأن اهتزاز النور فيها لا يحدث إلا صباحاً في تمام السابعة موعد خروجي، إذ ما من مرة عدت ليلاً إلا ووجدتها على أحسن ما يرام من دون اهتزاز في نورها، وكنت حين أنشغل بها أتفقدها مراراً في اليوم فلا يكون نورها مهتزاً.

حسنا! لندع أمر "اللمبة" جانباً، ولأمض إلى عملي، سالكاً طريقي الاعتيادي الذي يتيح لي تجنب المرور من أمام الجامع لئلا أتعرض لمضايقات جماعة الشيخ فضل، وألا أعود إلى ذكرى الضرب المبرح الذي تلقيته على أيديهم حين تجرأت وطلبت من الشيخ فضل أن يخفض صوت الأذان أو أن يغير جهة مكبر الصوت، وقد خرجت بعد طلبي ذلك بعين مزرقة متورمة، منحتني شعوراً بأنها ستقع على الأرض لا محالة، هذا عدا عن تحولي إلى حمار وحشي، وقد أصبح جلدي مخططاً من ضربات العصي، لكن الأشد إيلاماً كان وابل الأحذية والنعال التي أمطرتُ بها وأنا أولي الأدبار.

هذه الواقعة تكررت بتجليات مختلفة، إذ إن الأحذية التي انهالت عليّ في مركز الأمن لم تكن مفارقة للأرجل، وبالتالي لم يُرمَ بها بالأيدي، وهكذا كانت الأيدي والأرجل تتعاضد وتتعاون على الاحتفاء بي، كما أن عيني الاثنتين هذه المرة نجتا من الوقوع على الأرض، أما جلدي وتحولي هذه المرة فقد كان مزيجاً بين الحمار الوحشي والفهد والحرباء إذ تداخلت الخطوط مع البقع والكدمات، وكانت حاجتي الماسة لأن أغيّر جلدي أو أن أخرج عنه من شدة الألم.

على كلٍّ تجنبي أيضاً المرور أمام مركز الأمن، لا علاقة له بما تعرضت له فيه، بل إن خوفي أصيل من الأمن والشرطة وشتى صنوف من يقومون

بحمايتي وحمايتكم، لا بل إن شعوراً عجيباً ينتابني متى وقعت على أي شيء على اتصال بالأمن، شعور يتخطى الهلع إلى ملكوت التلعثم والتخبط بنفسي. وهكذا فإنني عاجز تماماً عن وصف ما صار إليه شعوري الأصيل بالخوف من الأمن، بعد ما تعرضت إليه جراء توصية والد ليلى لرجاله الاهتمام بي ونزع جلدي عن عظمي قائلاً لي "هذه فركة أذن لا أكثر"، وأنا لم أقل إلا سمعاً وطاعة، وليلى لا تسمع ولا تطيع، والجرأة من سماتها، تحبني أنا الرعديد، وكلما صرخت أمامها معلناً أني جبان وضعت يدها على فمي.

ألف وتسعة وتسعون خروفاً، ألف ومئة خروف. . .

أواصل عدّ الخراف لأتفقدها في أعماقي، وخطواتي تمضي نحو موقف الباص.

جاء محشر النقل العام، انحشرت فيه، ورحت أُعتَصر بالبشر، كما لو أنهم يريدون أن يخرجوا مني أسوأ ما فيّ، وربما أفضله لا فرق! أفكر بأن أثغو! والسائق يصرخ بنا أن نوسّع مكاناً لركاب جدد، فتتحرك أعضاء كل الركاب كما لو أنها عضو واحد، وتكون الاستجابة على أشدها حين يكون رجل ملتصقاً بامرأة، حينها يكون ظلها تماماً، ظلها اللصيق التائق للحركة معها وفيها، وهنا يمكن الحديث عن أكثر من عضو من باب خصوصية الحالة، كما أن من يكون برفقة امرأة هي زوجته أو حبيبته أو زميلته في العمل يكون ظلاً من نوع آخر، ظل أقرب إلى كلب حراسة متأهب لنهش أي لمسة عن قصد أو غير قصد، ومع تكرار السائق طلبه، يُخلي سنتمتراً واحداً، مفسحاً المجال لركاب جدد، وتتحرك روائح البشر وتختلط.

أصل المدرسة وقد تضمخت وتلطخت، وما أن أخطو حتى تدور رحى الضجيج الذي لا يوقفه إلا الصراخ، صراخ المعلمين، وأنا واحد منهم، الصراخ الذي لا أمارسه، ولا يوقفه التوبيخ ولا الضرب ولا أي من العتاد اللازم لشرح الدروس والسيطرة على التلاميذ، فأنا أدخل الصف ولا أنطق بحرف خارج

الدرس، كما أفعل الآن ووجهي إلى اللوح أشرح بصوت بالكاد يسمع، عن الاسم المنقوص.

أربع حصص كافية ليمضي يومي. وفي غرفة المدرسين، يهيمن على الحديث ارتفاع أسعار البيض ارتفاعاً لا سابق له.

فقست من بيضة المدرسة، خرجت منها ليلاقيني برد مفاجئ جمّدني، وهدوء لم يفارقني طيلة مشيي الطويل، هدوء مريب وأنا أقطع الشوارع الأكثر ازدحاماً، وصولاً إلى ميدان الساعة الذي يتكدس فيه الضجيج لا يريد أن يفارقه ليل نهار، وقلة من المارة يعبرون الشوارع صامتين مطرقين، والسيارات القليلة العابرة للشوارع ليس لمحركاتها صوت، ولا يصدر عنها أي ضجيج، تمضي بطيئاً كما لو أن عجلاتها لا تلامس الأرض.

واصلت المشي هلعاً، لا، لم يعد مشياً بل هرولة، وقبل أن أبدأ الركض بجنون، هارباً مما أجهله، لا أعرف أي ميلمتر من دماغي صار يأمرني بأن أستجمع نفسي، أن أتوقف وألجأ إلى أي مدخل بناية أستجمع فيها نفسي وأنفاسي وهلعي، والشوارع أمست خاوية تماماً، لا أحد فيها إلا أنا، وكانت أقدامي قد أطلقت العنان للركض، لكن رويداً رويداً صارت تخفف من حدة ركضها إلى أن ابتلعني مدخل بناية معتم، ولم يسعفني في استجماع أي شيء مني، ورحت أصعد السلالم وأصرخ مثل المجنون "يا ناس يا بشر"، والإجابة الوحيدة التي كنت أتلقاها هو صوت الأقفال ورنينها وصخبها وهي تحكم من إغلاق أبواب الشقق، وكلما مضيت في الطوابق إلى أعلى كان يعلو صراخي برفقة صخب الأقفال، إلى أن وصلت السطح، الذي ما أن خرجت إليه حتى صفعت الشمس عيني، وبدا الضجيج على أشده، وحين ألقيت نظرة إلى الشارع بدا مزدحماً، والحياة ماضية بكل ما أوتيت من صخب وضجيج.

لابد أن أحداً ما يعبث بجهاز التحكم بالمدينة، حين كنت في الأسفل أوقف حركتها، حين صرت على السطح ضغط على مفتاح التشغيل، ولا أعرف

ما إذا كان يقصدني أنا بالذات، عليّ أن أستجمع نفسي، يعود الميليمتر المجهول في دماغي إلى مطالبتي بذلك، أستجيب، أشعل سيجارة فاختبىء خلفها بدلاً عن اصبعي، هذه أول سيجارة لي اليوم، وها أنا أعبُّ دخانها، التهمه، بما يروي رئتي المتشققة عطشاً إليها.

تلفّت من حولي، عدت وتلفت من جديد، أنا في الحي الذي تقطنه ليلى، لكنني ما زلت عاجزاً عن تحديد بيتها. فركت عيني مراراً، ليس طاعة هذه المرة لذاك الميلمتر المجهول من دماغي، لكن في محاكاة مبتذلة للأفلام، وقد كان ذلك على شيء من التظاهر بأنني غير مصدّق، وفي إضافة خاصة بي لا علاقة لها بالأفلام والمظاهر كنت استجمع، عبر فرك العينين، قوة التركيز وتحديد المكان ومن ثم الوجهة، وقد كان علي أن أنزل الشارع، لكنني كنت خائفاً أن تتوقف الحركة مجدداً في الشوارع وتعود إلى خوائها، وبدت فكرة القفز من سطح بناية إلى آخر على علاقة بسوبرمان وسبايدرمان.

لم أفكر بالاقتراب منها ولا الاتصال بها بعد مرور أكثر من شهرين على حفلة "شد الأذن" التي أقامها لي والدها، هي من كانت تتصل بي يومياً غير مبالية، وقد اقتحمت بيتي ثلاث مرات كنت أقابلها فيها مرتعداً عاجزاً، والخوف أشد من العشق وأمضى، خوف يصيرّني عذرياً، وقيسياً، ومجنوناً، يجد في الحب بلواه : "فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا".

كانت ليلى مجنونتي، أنا المروض، الحمار، راقص الباليه الممتقع، أنزل درجات السلم على رؤوس الأصابع، أخطو خطوات حذرة إلى الشارع، أعود إلى مدخل البناية، أمسح بنظري يمين ويسار الشارع، كل شيء طبيعي، الحياة متواصلة، والذي بيده جهاز التحكم بالمدينة لم يضغط على مفتاح الإيقاف، وميلمتر آخر من دماغي تولى نوبته عن المليمتر السابق، وها قد ضغط على مفتاح تشغيل أقدامي، مسير خمس دقائق وطالعني بيت ليلى، تبدّى لي "كالشمس تحت غمامة"، وحارس يرش الماء بخرطوم وفي زاوية فمه اليمنى تدلت سيجارة، بينما جلس حارس آخر على كرسي وفي حضنه رشاش صغير.

لم أتوقف عن المشي كي لا ألفت أنظار الحارسين، استطعت تحديد غرفة ليلى، رفعت عيني من دون أن أرفع رأسي، ومع كل نظرة استرقتها إلى شباكها كان يبدو أشد عتمة، وبيتها الأبيض بنوافذه الكثيرة الشفافة عملاق ضخم أعور، يضع عصابة على عينيه، وموضع تلك العصابة عند غرفة ليلى.

أسرع خطواتي وأدع لزقاق أن يبتلعني لأمضي، "أبكي على ما فات مني صبابةً وأندب أيام السرور الذواهب".

٢

محشر النقل العام.

إنه ملاذي الحالي ولا خوف من أن يصبح خاوياً وأترك وحيداً! درجة الحرارة لا بأس بها، لا حر ولا برد، وعلى امتداد خريطة جسدي هناك احتمال لزخات من الحزن العارم، يزيد من احتمالاتها الخوف المنتصر عليّ أبداً، وشجاعة ليلى المدمّرة تزيدني خوفاً في تناسب طردي.

العواقب واضحة، كما حزن هذا الرجل الخمسيني طويل الهامة، وقد بدا رأسه الأشيب مطلاً على كل من في الباص، ويده ليست فوق رأسه تمسك بإحدى مقابض الباص المتدلية أو الماسورة المعدنية أو أي شيء يستمسك به، وحين بحثت عن يديه، وجدت اليسرى تحمل كيساً، بل تقبض عليه بقبضة متوترة ظهرت عروقها، بينما يده الثانية في جيب معطفه، وكم هو غريب أن يستطيع المحافظة على توازنه رغم اهتزازت الباص المتواصلة من حفر الشوارع والمطبات اللامتناهية أو حتى من الباص نفسه الذي يهتز من رأسه إلى أخمص قدميه.

أثار هذا الرجل فضولي الذي يكاد يكون معدماً، مثله مثل استجابتي لأي مفاجأة أو حدث غير متوقع، أي ردات فعلي التي تستغرق طويلاً بحيث لا تبقى رداً على فعل وقد تلاشى الفعل المسبب له، لكن هذا الرجل أثار فضولي حقاً، ربما لأنه يشبه أبي؟ لا! ما من شبه بينهما! إنه لا يشبه أحداً.

أتمنى من الرجل القابض على جهاز التحكم بالمدينة أن ينظر في أمر محشر النقل العام، ويضغط على مفتاح ما ويفرغ هذا المحشر من المحشورين فيه ويبقيني وحيداً والسائق، ولا بأس بأن يبقى الرجل الأشيب كي أحكّ فضولي.

لكن مهلاً!

صرخات تتعالى! ليست من صنيع ركاب الباص وليس الباص نفسه، إنها تتردد وتتعالى من حوله، والباص يخفف من سرعته، وها هو يدب، الصرخات غير مفهومة، وما التقطه من عبارات عجزتُ عن فهمها، بدت ألغازاً أسمعها للمرة الأولى، بينما بهتت وجوه المحشورين معي وسُحبت منها ألوانها، فاستحالوا صفر الوجوه، وأشدها صفرة وجه الرجل الخمسيني الأشيب، الذي كانت عضلات وجهه تتقلص، وتتحرك حركات غير إرادية بالتناغم مع القرقعات التي تصدر عن معدن الباص وهو يتهادى.

ما أن توقف حتى صدرت عن الرجل الأشيب صرخة مدوية اهتزت لها أركان الباص والمعمورة، وبدأ المحشورون بالتدافع جارفين معهم الرجل الأشيب الذي كان أطولهم وبادياً لي تماماً كيف كان يمضي بعيداً عني كما لو أنه محمول، ليرتطم رأسه قبل خروجه من باب الباص ويختفي.

فرغ الباص تماماً، صار محاصراً بجموع غفيرة من البشر، وكما حدث لي في الشارع منذ أقل من ساعة، أصبحت وحيداً تماماً داخل الباص وأمامي أشياء مما خلّفه الركّاب مرمية على أرضية الباص، بينها كيس الرجل الأشيب.

اختفت الحشود الغفيرة.

القابض على جهاز التحكم استجاب لأمنيتي، لكن ضغطه على مفتاح التفريغ ترافق مع ضغط عدد لا بأس به من البشر على زناد البنادق.

ما زلت في الباص وحيداً أنظر إلى الكيس، أستولي على جرعات كبيرة من الهدوء تساعدني على تحريك رد الفعل لدي اتجاه ما شهدته، وأنا أقرب لليأس من أن آتي بحركة، وقد وجدت الرسائل الكثيرة التي أرسلها كل ميليمتر في دماغي إلى مواطن الحركة في جسدي، ودروبها وعرة محفوفة بالمخاطر، فمنها ما وصل قلبي فتسارعت دقاته، وأخرى انحرفت عن مسارها ووصلت أجهزة التنفس فصارت تأخذ أضعاف ما تحتاجه لتعمل، وتزفر ضعفيّ ما تنشقته بما يرضي القلب وقفزاته.

الأعضاء الأخرى قرأت الرسائل بسرية تامة، وأخص بالذكر البنكرياس الذي يؤرقني على الدوام، أما الذي بقي غير مبال بالرسائل الدماغية والدماغ نفسه فقد كان نخاعي الشوكي. لقد انتهز الفرصة وانقلب على الدماغ بفضل ولاء الأدرينالين له، وصار المتحكم فيّ، وأنا أفكر بواسطته الآن فلا آتي بحركة.

سرعان ما استعادت أعضائي رغبتها بالحركة، وعادت لمخيلتي حيويتها، وما المخلية لدي إلا بوابة للخوف أبداً، فتعطفت عليّ بشعور أكيد أن صاعقة ستضرب الباص في ظل هذا الهدوء المهلك، فاندفعت أركض وأركض بيدي الكيس الذي ازداد ثقلاً، إلى أن وصلت البيت من دون أن يتلعني مدخل بناية أو زقاق، والقابض على جهاز تحكم المدينة لم يضغط مفتاح التشغيل بعد.

كانت المدينة لي، وما من ظل إلا ظلي على الأسفلت، والحي لي والبناية، وقد خيّم عليهما صمت الأموات، وكل من كنت أصادفهم صاروا في غياهب مجهولٍ أباركه أنا وحدي، وصرت أصعد الدرج رقصاً، ألوّح بالكيس كما لو أنه غنيمة لا بد لها من ثقل، وأهرب بفرحي المضطرب من رغبتي في أن أزيد منه بتفقد الجامع ومركز الأمن فلا أقع على جماعة الشيخ فضل ولا رجال الأمن مفتولي الشوارب والعضلات الذين جعلوني أقبّل الأرض بين أقدامهم. لم أقو على ذلك، لم أجرؤ، ماذا لو ضغط القابض على جهاز التحكم بالمدينة على مفتاح التشغيل؟ على كلٍّ لم يعد مفتاح إيقاف وتشغيل، صار مفتاح إخفاء، ماذا لو رأوني من دون أن أراهم؟

الخامسة وعشر دقائق عصراً.

أنا أقرأ الوقت، إذن أنا في البيت. مضت عشر دقائق على تغريدة الكنار المتحلل في الأصيص المختفي، لو تأتي ليلى لانغرست في أصيصها الخصب، لي شجاعة ثور هائج وتهوره، وجسارة أسد التهم مروّضه وهدّم خيمة السرك، وما من أعين لتترصدني وتترصدها، وللمرة الأولى أعتد

بجدران البيت، بسماكتها وعزلها، وما عهدتها فيما مضى إلا من زجاج، أو شاشة لمعشر المشاهدين من الجيران على الشرفات والشبابيك، فأنا في حالة عرض متواصلة طالما كنت في البيت، ومن في الشارع يتبرعون للعمل كقاطعي تذاكر لكل رواد بيتي، يحصونهم، وأحياناً يقيمون لهم مراسم السجادة الحمراء ملتقطين لهم الصور من دون كاميرات لا تختزن الشكل والملامح والمقاسات بأفضل من أعينهم، و"لست وارداً ولا صادراً إلا عليّ رقيب".

آه لو تأتي ليلى، لما كنت بادلتها العنفوان بالتهلهل، والاتقاد بالبرود، لما رأيت في جمالها وشجاعتها لعنة لا طاقة لي بها، لو تأتي ليلى الآن لما كانت إلا عينيها وما من عيون أخرى تحاصرني وترصدني، ولا سمعت إلا صوتها وأنفاسها وتأوهها، فأذناي لن تكونا معلقتين بالباب مخافة أن يُقرع، أو أن يخلع بركلة قدم أحد رجال والدها.

كم كانت ليلى تكره عيادة صديقي الطبيب التي التقينا فيها مرتين أو ثلاثا في الظهيرة لأقل من ساعتين حين تغلق أبوابها بين الفترة الصباحية والمسائية، وكم أحببت لقاءنا فيها، وفرحت بتحويل سرير الفحص إلى سرير غرام، محتفياً بكل المعدات الطبية وقد تحولت إلى مهيجات لأنها تحميني من فضول الآخرين، شاعراً بالأمان لأن أحداً لن يلحقنا إلى هنا، أو يشك بليلى وهي تدخل بناية لا شيء فيها إلا العيادات والشركات والمكاتب، طبعاً كل مخاوفي ليست بواردة لدى ليلى، وقد وضعت حداً لهذه اللقاءات الغرامية الصحية، بأن رمت - في مكالمة هاتفية – بجملة طويلة متواصلة من دون أن تلتقط نفسها: "دع لصديقك الطبيب أن يفحصك حتى يكتشف اختلاطات كثيرة لديك وأمراضاً مثل سرعة تثفل البراز بالدم وتمازج المني بالبول والبصاق" وأغلقت الهاتف.

كيف ستأتي ليلى الآن، ماذا إن كان مفتاح الإخفاء قد طالها؟

ها أنا اتصل بها.

لم تراودني أي مخاوف! هذا يعني أن سوائل ومفرزات جسدي عادت إلى مصادرها ومواضعها وقنواتها، وعاد الدم إلى مجاريه في أوردتي وشرايني دون اختلاطات أو شوائب.

ليلى لا يطالها جهاز تحكم، ليلى لا تختفي، ثم "أليس الليل يجمعُني وليلى كفاك بذاك فيه لنا تدان".

٣

وقعت على ليلى في المنام تحرضهم على قتلي:

"اقتلوه وهو نائم، روّعوا به مقعد الحديقة الممدد عليه. لا يستحق الرأفة من جاء متأخراً! من هو بعيد!"

كنت نائماً في المنام، وهم متحلقون حولي يهمّون بقتلي.

استيقظت ونجوت بأعجوبة.

أردت أن أعود إليها في المنام وأقول لها: أنا أول القادمين.

لكن ملاحقة منام يغيب عنه اللاوعي لصالح الوعي جهد ضائع، ثم هل أنا أول القادمين بحق؟

ما زلت في البيت وإن كنت لا أقرأ الوقت، والعتمة نجحت في اخفاء كل ما حولي، وقد استبدل الهدوء السابق لنومي بهدوء يصاحب انقطاع الكهرباء، وما أن وصلت يدي مفتاح الضوء حتى تأكدت من ذلك، لابد أن القابض على جهاز تحكم المدينة قد ضغط أثناء نومي على مفتاح التشغيل، وأضواء خفيضة لشموع ومصابيح تتراءى لي من خلف الشبابيك.

عادت الكهرباء، عمّ الضوء غرفة الصالون، ولم يشحذ بصري إلا كيس الرجل الأشيب، ممرراً برأسي شريط ما عايشته في هذا اليوم، استمسكت بالشريط لأفارق الأريكة وأصل الكيس على الطاولة وأخرج ما فيه:

علبة كبيرة! أكبر من أن يتسع لها الكيس رحت أفكر، وقاومت بشدة أن أنقاد خلف لعبة الأحجام.

فتحت العلبة فإذا هي يد ما بداخلها، نزعتها ولم تكن بيضاء للناظرين، يد وقفاز ومجسّات الكترونية ولا أعرف ماذا! يد اصطناعية كان سيريبها على ساعده فتحيا وتنمو وتترعرع، فيستطيع أن يمسك بكل ما أفلت من

يده اليمنى التي هجرته، وقد حسبت في الباص أنها في جيبه، ولم يكن ما بداخل جيبه إلا كمّ سترته خالياً من يده.

يده بيدي لا أعرف على ماذا ستتعاون؟ وما الذي ستتمسك به يدي إن هي أمسكت بيد أخرى، وما الكائن الذي سأصيره إن كنت بثلاث أيدٍ؟

كتبت أسئلتي هذه أودعتها على "الفايسبوك" في صفحتي ذات الاسم المستعار، "بوستاً" مسكّناً مؤقتاً لما يحتدم في رأسي من أفكار وليدة اليد.

كما في كل مرة انهالت عليّ "اللايكات" والتعليقات، فأنا طلاّع ألوية الافتراضي، جابي "لايكات" المشرق والمغرب، وقد كان عليّ أن أمهد لكم هذه الحقيقة الافتراضية الفاقعة قبل أي شيء آخر لئلا تسيئوا الظن بي ولا تجدوني إلا مكبّاً لنفايات الخوف وأطلالاً لما لم أسكن إليه يوماً، ولا منجد لي من خوف لا يفارقني عاضّاً عليّ بالنواجذ، فأنا إله الجسارة على "الفايسبوك".

صوّرت اليد الاصطناعية وشاركتها بصفحتي "الفايسبوكية" وكتبت فوقها:

من عرف منكم يد من هذه ولمن تكون، أخذت بيده إلى المشارق والمغارب، وأخذ هو/هي بيدي إليه.

لم تكن الاستجابة كما عهدتها، ونسيتُ أن وضعي صورة اليد كان للعثور على صاحبها، بعدما فشلت في العثور على رقم هاتف أو عنوان على الكيس أو العلبة، واستبعدت اللجوء إلى مركز الأمن قبل أن أفكّر بذلك، وقد بدا "الفايسبوك" وسيلتي الوحيدة، لكنني على ما يبدو استبدلت همّي بالعثور على صاحب اليد، بالكتابة عن اليد، وضعت صورتها مراراً وأرفقتها بعبارات وجمل ملتبسة حمّالة معان كثيرة، وقد صرت عاجزاً تماماً عن كتابة ما حدث لي وإطلاق نداء يحث من يعرف بطريقة أو أخرى أي شيء عن صاحب هذه اليد أن يرسل إلي رسالة وما إلى هنالك.

مستسلماً لتدافع ما أوحت به إلي هذه اليد، فردت جناحي الصغيرين ورحت أغرد أيضاً على "تويتر" متى كان عدد الأحرف صالحاً للتغريد وثلة من العصافير التي تلتقط دودها مبكراً تعيد التغريد بتغريداتي، وقد أمسى لكل تغريدة جوقة عصافير تنبئ بأن فجراً يتوالد على الدوام:

اليد إن تكوّرت لا رادّ لها.

اليد وما تقبض.. اليد وما تلوّح ..راية الحرية طوع هذه اليد.

عضّ اليد التي أطعمتك لأنها تجوعك بما أطعمتك، وتتخم السفلة وما أن تنطق بحرف واحد عن التخمة حتى تصفعك.. هذه يد جديدة لا لامست، ولا تسببت بأذى، ولا شوش على مساماتها اتساخ أو علق عليها صباغ أو لون أو خنقت بقفاز في ليالي البرد المهلك.. هي يد البداية والانطلاق وما تستمسك به لا يخيب أبداً، منتصر من يدعها تقوده ووجهتها لا نهائية، يد الخلاص المؤجل أبداً وها هي تستعجله ليكون خلاصاً منجزاً تاماً يعمّ الجميع.

هل رأيتم كم أنا مهم! وكم أنا مؤثر! لقد اجتاحت مواقع التواصل الاجتماعي موجة محمومة لتلقف ما أكتبه، ومع "هاش تاغ":

#يد_تربت_على_كتف_الحرية_تؤازرها_تستحثها

طارت اليد، انتشرت بسرعة الضوء، تردد صوتها وصداه في كل مكان في أرجاء المدينة والأصقاع قاطبة، والجميع مشغول باليد التي صارت يد الجميع، يتقاسمونها، ومنهم من يمتثل لما جاءت عليه حملة اليد التي أطلقتها، في استجابة لمراميها، وأنا الذي لا أعرف مراميها أصلاً، وصرت أعرفها مما يضاف إليها من أشخاص مجهولين افتراضيين، يمكن أن يكونوا بأسماء مستعارة مثلي، يحولون اليد إلى شعار، له أن يدمر كل شيء، وأن يستخلص حفنة التراب التي

يشاء من الأرض القريبة منه ويذروها أو يسفها مخمداً حموضة معدته المتأتية من القهر والهزائم المتوالية التي تلحق به يومياً، وهو يعود يومياً إلى بيته وعلى عاتقه راية استسلامه، وها هو يحولها إلى راية تمرد، بينما آخر يدعو إلى اجتثاث سارية الراية، معللاً ذلك بأن على الراية أن تكون محمولة باليد وملوحاً بها باليد، وأن الامتثال إلى سارية سبب كل علّة، والشفاء يأتي كاوياً وناجعاً حين تترك الرايات للأيدي تتناقلها وتهبها حريتها خفّاقة كريمة. ومنهم من يصرخ كما تشي به نبرة كتابته بأنه لا يريد راية ليست في النهاية إلا قطعة قماش ملوّنة بثلاثة أو أربعة ألوان، صارخاً بأعلى ما تتيحه الكتابة من إيحاء استصراخي أن على اليد أن تترك حرة خفّاقة هي بذاتها من دون أن تقبض على شيء، يد المصافحة والمرح والحياة المشرقة، وأن تكون قراءة خطوطها بحصافة وثورية معبراً إلى مستقبل مشرق ما عاد يفصلنا عنه إلا بضع خطوات، ولينهي ذلك بأن علينا وعلي أنا مطلق عنان اليد أن أفكر بالأرجل، فما نفع اليد ما لم تكن هناك من أرجل وأقدام تمضي بنا.

منهم من يستهزئ باليد أيضاً، وهو يراها مهلهلة بالكاد توضع على مواطن الوجع حين نصاب بها فلا هي مداوية لها ولا مخففة للألم. ومنهم من هو أشد شراسة ينادي بأن تقطع هذه اليد، بينما يطالب آخرون بوضع حد لها لأنها كائن تافه، فتهب جحافل من مؤيدي تلك اليد يعضون كل من يطعم معشر المتابعين لوقائع اليد طعاماً فاسداً، ويسممون المناهضين لها فيقضون عليهم بالقول على سبيل المثال: إنكم لن تقبضوا على شيء، ولن تعرفوا أن اليد قبضة، عليكم أن تكوّروها وتقوموا بلكم أنفسكم لتستيقظوا من غفلتكم وسخافتكم، وصولاً إلى نعي كل من لا يؤمن بهذه اليد على اعتباره ميتاً يعتقد واهماً بأنه حيّ، وهكذا إلى ما لا نهاية ولا صوت يعلو فوق صوت اليد.

الانعطافة الكبرى كانت حين تحوّل كل ما كتبته عن اليد إلى "يد الله"، وهي لعمري انعطافة وضعتني جانباً فعدت إلى خوفي الأصيل، حين ظهر

لي رجال الشيخ فضل وقد تولوا المهمة، وهكذا دخلت في ملكوت القلق وشهدت كيف أن "هاش تاغ":

#من_وضع_يده_بيد_الله_ما_خاب

سحق "هاش تاغ":

#يد_تربت_على_كتف_الحرية_تؤازرها_تستحثها

واجتاحت مواقع التواصل الاجتماعي موجة جديدة قطعت يدي قبل أن تطال لوحة مفاتيح الكمبيوتر، وكلما صار البحر الافتراضي أعتى وموجاته أشد تلاطماً كلما صرتُ أكثر جزعاً، وموجات متوالية من الهلع تجتاحني وأنا أستعيد بأس رجال الشيخ فضل وقبضاتهم تأخذني ذات اليمين وذات الشمال، وإيمانهم مستقر في أيديهم وصولاً إلى الأحذية التي لم يكونوا يرتدونها بل يرمون بها بأيديهم نحوي.

قلت لنفسي ألا أيها الفتى اصبر وتجلّد، ما أنت إلا كائن افتراضي في هذا الفضاء، فكتبت وغردت ضدهم:

إنها يد الجميع لا علاقة لله بها، وإن مباركتها بجلاله شيء واعتبارها يده هو بالذات شيء آخر.

طالما أنني أمام فضاء أبيض، أي الأوراق، فللتذكير كل ذلك أضعه وصورة اليد مرفقة معه، ومع هذا "البوست" انهمرت عليّ التعليقات المنددة، وخلال خمس دقائق أصبحت زنديقاً وبلا شرف، وأحد أكثر المناصرين لـ "يد الله" لم يتردد بوصفي بـ "العرص"، وغير ذلك من صفات لا طاقة لي باحتمالها، فهذه الصفات مناقضة تماماً لما أنا عليه في الافتراضي حيث أحاط بالمديح من كل حدب وصوب، فقمت وفي استجابة لسمعتي

الافتراضية بحذف هذا "البوست" اللعين مستبدلاً إياه بـ:

ما من يد تتوق للحق لا تكون يد الله

وكان أول المعلقين من نعتني بـ "العرص"، فكتب "ما زاغ البصر وما طغى" وبدوري علقت لئلا يتبادر له بأني كنت يوماً من الأيام عرصاً أو قواداً "صدقت"، وتوالى المديح الذي يطربني، وهكذا استعدت نفسي الافتراضية، وبدا "هاش تاغي" مزحة أمام انتشار "هاش تاغ" معشر الشيخ فضل، وعلى مايبدو أن عليّ التراجع عن وصف انتشار "هاش تاغي" بأنه مثل انتشار النار في الهشيم، فهكذا توصيف لا استحقه إن قارنته بـ

#من_وضع_يده_بيد_الله_ما_خاب

ورحت أمنع نفسي من كتابة أن يدنا كانت وما تزال وستبقى بيد الله، وأن هذا لا يغير من الأمر شيئاً، وأن الأمر على اتصال بما ستقود إليه هذه اليد التي أضع صورتها، وما ستقبض عليه وتنتشله من الغياهب، ما تدفع به نحو العلن وكلنا في الخفاء سواء، لكنني أنا الاسم المستعار افتراضياً، أنا الاسم المنقوص في الواقع، ينقصني كل ما أتبجح به، وعالمي الافتراضي ليس بمنيع عن ذلك، وها هو يتهاوى ولم يعد من مساحة استطيع فيها قول كل ما أعجز عن فعله أو حتى قوله.

ما بك أيها الرعديد؟

قل كلمتك، أنت خلف اسم لا يعرفه أحد. قل أي شيء وهم يسطون على ما تجرأت عليه. تجرأ عليهم كما يتجرأون، لقد اختطفوا منك يدك ويد من تجهله، وأنا أقول لكم - أنا من يخاطب نفسه - لا حياة لمن تنادي، ومن أناديه هو أنا، أنادي نفسي بنفسي ولا حياة ولا هم يحزنون..أنا الاسم المستعار..أنا الاسم المنقوص..ليس لي أن أكون اسماً حقيقياً ولا اسماً مكتملاً.

٤

انهارت الحقيقة الوحيدة الموقن بها:

أنا في البيت إذن أنا أقرأ الوقت.

لم يعد لهذه العبارة من معنى، فأنا ما زلت في البيت لكنني لا أقرأ الوقت، إنها تمام الخامسة وعشر دقائق، كما هي عندما قرأت الوقت للمرة الأولى وثبّتُ ذلك على هذه الأوراق، إضافة إلى أن الليل أرخى سدوله، وتمطّى الفجر مراراً، وتصاعدت تدرجات لونية كثيرة في السماء، اختفت فيها العتمة ثم عاودت من جديد، إشراقاً وتمطياً واستيقاظاً ونوماً، وقد أمسى الليل والنهار أحجية، والظهيرة محاولة فاشلة لتفسير مرور الزمن ومعنى اليوم، كما هو الغروب وما قبله وما بعده، والساعة على ثباتها الأصمّ مخمدة رنة الكنار وذكراه الوحيدة التي تركها قبل أن يتغمده الأصيص، الساعة الآن وعما قليل أو بعيد: الخامسة وعشر دقائق عصراً!

يبقى الشطر الأول من الحقيقة حقيقياً، ألا وهو أنني ما زلت في البيت، وقد عفت مواقع التواصل الاجتماعي أنا اللا اجتماعي الانطوائي أصلاً، والأكثر حقيقة من الحقائق مجتمعة أنيّ متحرق لليلى وقد صارت ساعتي وتواقيتي، "ترى وضح النهار كما أراه ويعلوها النهار كما علاني".

أعود إلى ثيابي، وأخطو خارج عتبة بيتي، "اللمبة" على ضوء متواصل، لا اهتزاز ولا هم يحزنون، لكنني لا أعرف إن كانت الساعة السابعة أم تجاورتها، أو أنها سابقة لها، والأذان ما عاد موقظي فجراً وفي المرات القليلة التي تسنى لي سماعه كان بمنتهى الرقة والخشوع، ولعل تحليه بهذه الصفات هي التي حالت دون أن يكون موقظي في أي مرة كنت نائماً فيها.

عليّ أن أخرج من البيت، لا أعرف كم لبثت فيه، كم بقيت ثياب النوم ملتصقة بي لا أتعاطى ثياب الخروج، وها أنا أخطو إلى عالم الواقع، وأقدامي تخلّ بالخريطة التي برمجت عليه، ماراً من أمام جامع الشيخ فضل، يستوقفني

رجاله، لا لشيء إلا ليسلموا عليّ، ومنهم من فتح ذراعيه ليأخذني بالأحضان. وعبارات المحبة تنهال علي، وأنا أبادلهم كل ذلك كما المسرنم، لا أصدق ما أشاهده وما أكذبه، ماضياً في طريقي مثل المتلعثم، فيركضون خلفي فأتهيأ لتلقي الصفعات والركلات، إلا أنهم يتحلقون حولي ويقولون لي الشيخ فضل بنفسه يريد رؤيتي، فأمضي معهم وقد صرت مسرنماً أكثر من قبل لا هو نوم ولا هي يقظة، والشيخ يهلل فرحاً بقدومي، وقد أمسيت ابنه " نهارك طيب يا ابني..عساك بخير يا ابني" ومن ثم يرفع يديه ويهمّ بالدعاء لي سائلاً المولى أن "اللهم اغفر له ذنوبه، وارزقه علماً صادقاً ويقيناً صادقاً..وأن تكفيه شر الدنيا والآخرة، وتفرج عنه كل ضيق وشدة وأن تختم بالصالحات أعماله" وقال "آمين يا رب العالمين" وقلت أنا بدوري "آمين" وتوكلت.

أقدامي على اصرارها بالقضاء تماماً على تلك الخريطة اليومية، وها هي تمضي بي إلى مركز الأمن، وقد حزمت أمري بأن استسلم إليها، بعد أن انتقل دماغي من سكنى رأسي إلى أقدامي، وانتصرت هذه الأخيرة عليه فسلّمها عملية قيادتي، وإن كانت تقودني إلى التهكلة، إذ إنها لم تكتف بالمرور من أمام مركز الأمن، بل دفعت بي إلى داخله، وهناك كان المشهد مهيباً، والوجوه التي استقبلتني كانت تتنافس فيما بينها على اظهار كل ما يوحي باللطافة والمودة، وما من أحد منهم يرتدي الزي الرسمي، وقد نهض أحدهم من خلف طاولته مرحباً بي، قائلاً لي بصوته الجهوري "أهلاً بحضرتك" متبعاً ذلك بسؤالي "هل من أحد تريد أن تبلغنا عنه؟" ولم ينتظر اجابتي بل أخذني إلى سجن الموقوفين وقد كان مزدحماً برجال مركز الأمن أنفسهم وقد حشروا وراء القضبان، وصار يمر بي من أمامهم ويقول لي "قلّ من منهم عذبك أو أهانك ونحن نتصرف معه؟" وأنا عثرت من بين السجناء على اثنين ممن تناوبوا على ضربي لكنني لم أجرؤ على إعلام ذلك الرجل بهما، بل إن أحدهم قال "دنيا غدّارة دوّارة، صار فيها المسجون سجّان- " لكن ذاك الرجل الذي يرافقني لم يترك له مواصلة عبارته صارخاً به "اخرس" فخرس.

لم أقع على والد ليلى، فقد كان هو من سأخبر عنه ذاك الرجل، فهذان الرجلان ليسا إلا منفذي أوامره، وهكذا غادرت المركز بعد مصافحة ذاك الرجل شديد البأس والطيبة معاً، ولم أعد مسرنماً، بل مدهوشاً وجدران المدينة تستقبلني باليد مذيّلة بعبارات كنت قد كتبتها على "تويتر" و"فايسبوك"، وعبارات أخرى لا عهد لي بها لكنها عن اليد، وهي أشد مضاضة من الحسام الذي شرعته، وصور اليد صارت إلى أيادٍ من لحم ودم لا علاقة لها من قريب أو بعيد باليد الاصطناعية للرجل الأشيب، عدا بعض الملصقات التي تحمل صورة اليد الاصطناعية التي صدّرتها على صفحات التواصل الاجتماعي وقد كُتِب تحتها "مزوّرة" وفي ملصقات أخرى "مضللة"، كما أنني طالعت أموراً عجيبة أخرى لا أعرف إن كان القابض على جهاز التحكم بالمدينة على علاقة بها، فقد كانت السيارات تتوقف حين تكون الإشارة الضوئية على اللون الأخضر وتمشي على الأحمر، كما أن الغياب كان تاماً لشرطة المرور وقد استعيض عنهم بأناس عاديين لا يرتدون أي زي رسمي بل ثيابهم العادية، وقد كانوا ينظمون السير بسلاسة تثير الإعجاب وهم يصفرون بأصابعهم.

كما أن عليّ اخباركم أن محشر النقل العام لم يعد محشراً أبداً، فقد صعدت الباص ووجدت مقعداً جلست عليه، وهذه أول مرة تحدث لي، ولم يكن من الركاب وقوفاً سوى ثلاثة، اثنان منهم أعطيا مقعديهما لرجلين مسنين، بينما وهب الثالث مقعده لأمرأة أربعينة قبيحة شكرته على لطفه فلم يسعه الباص من شدة الفرح بشكرها له، حتى أنه بدأ يستعرض فرحه أمام الركّاب، بمن فيهم أنا حين خصني بنظرة تنم عن القول "أنا أفضل منك لأني أقدمت على هكذا فعل".

وصلت المدرسة، ويا للغرابة فقد كانت هاجعة وادعة هادئة، واختفى اعتقادي أن القابض على جهاز تحكم المدينة قد ضغط على مفتاح الإخفاء، بمجرد أن وقعت على أن التلامذة على ما هم عليه من أعداد غفيرة لكنهم لا يأتون بصخب أو شغب، كما هم المعلمون والمعلمات الذين كانوا شاردين يتبادلون أحاديثهم بأرقى مستويات الصوت، ورحت أشرح درسي عن اسم

التفضيل وهدوء مخيم على الصف، ويمكن أن أرمي بالإبرة فاسمع صوت ارتطامها بالأرض كما هو متعارف عليه حين يكون الهدوء مفرطاً، لدرجة لم أجد رغبة بأن أربط بيني وبين ما أدّرسه كما فعلت حين حدثتكم عن الاسم المنقوص الذي نعت نفسي به، لكن هذه الايجابية التي تحلى بها التلامذة، وأنا ألتفت إليهم وأقابلهم وجها لوجه للمرة الأولى وهم يسألون ويتفاعلون، دفعتني لأن أقول: أنا المتصرف والمعلوم والتام، قابل للتفاوت لا أدل على لون أو عيب أو زينة، وكم كنت أريد أن أحذف "زينة" لكن هذا ما يصاغ عليه اسم التفضيل.

كان كل شيء موفور الانتظام والسلاسة، كما لو أن ظاهرة غريبة حلّت على المدرسة، لا أعرف إن كان ذلك من أفعال القابض على جهاز التحكم، فالعملية هنا أكثر تعقيداً من إيقاف وتشغيل المدينة أو إخفاء البشر ومن ثم استعادتهم، فالتغيير يطال ما في النفوس، بحيث سيكون جهاز التحكم أكثر تعقيداً بمفاتيح كثيرة أخرى، مفتاح لإزاحة اللامبالاة واستبدالها بالرصانة، وآخر يقضي على الابتذال، ومفتاح ثالث يحيي الالتزام، ورابع يوقف النفاق والازدواجية، وغير ذلك مما لمسته لمس ما يتجاوز اليد من تغيرات جوهرية طالت كل من هم حولي، وإن كان لي أن أعثر على صفة تشمل أقوالهم وأفعالهم بوصف كاف وواف لعثرت عليها بـ "النبل"! فلابد أن مفتاحاً واحداً للنبل متواجد في جهاز التحكم، يضغط القابض عليه فيصيّر البشر نبلاء!

كان الجدل على أشده حول اليد في المدرسة كما في كل مكان في هذه المدينة المترامية، ولعل كلمة جدل توحي بحدة ما، والأصح استخدام كلمة "نقاش" والأدق "حوار" لا تعلو نبرته أبداً، كلّ يبدي رأيه فيسمعه من حوله ثم يبادر آخر بطرح رأيه مؤيداً أو معارضاً لما قاله الآخرون، حتى أن تلامذتي راحوا يسألوني رأياً فيما إذا كانت "يد الله ستربت على كتف الحرية"، طبعاً هذا تحريف لـ "الهاش تاغ" الذي أطلقته، مع ذلك كنت مسحوراً ومأخوذاً بما يريد التلامذة مقاسمتي إياه، وأنا أوافقهم حتى على ما لا أوافق عليه، طالما أنهم يفكّرون ويناقشون بما لم يتبادر إلى ذهني يوماً بأن أكون أنا

محط اهتمامهم، أنا الذي كنت أؤمن في ما مضى بأن أدمغتهم ضامرة من قلّة الاستعمال، وأن بذلهم أي جهد عقلي سيتحول إلى أوجاع تستقر في رؤوسهم بعد إصابة أدمغتهم بشدٍّ عضلي كما كل عضلة في الجسم يجري إجهادها بما لا طاقة لها به.

يجب أن أعود إلى البيت، ومواصلة ما بدأته على الصفحات الافتراضية، لا طاقة لي أن أناقش وأجادل، وفكرة تأخذني وأخرى تردني إلى ما لا أعرف أين. صور اليد ترافقني في كل مكان، وهناك متغيرات حولتها إلى أكثر من يد، ملصق عليه يد ممسكة بيد أخرى، أو عدد من الأيدي فوق بعضها البعض على شيء من التعاضد، وهناك يد تنزل على قصر مهشمة إياه، وفي آخر وقعت على يدين متوازيتين كما في الكاراتيه، وقد أصبحت عباراتي نسياً منسياً، وقد كانت العبارات الأخرى التي حلّت محلها مصاغة بعناية وهي ذات أهداف واضحة وإن تعذر عليّ فهمها، لا لشيء إلا لأني رأيتها مدمرة، لا طاقة لها بأن تلوح، بل هي على أهبة أن تصفع وتضرب وتدمر.

أهلاً بكم مجدداً في محشر النقل العام.

عاد الباص إلى سابق عهده، لا أعرف كم مضى من الوقت عندما صعدته واتخذت مقعداً لي فيه، يبدو أن أياماً كثيرة مرت، لكن كل ذلك قبض الريح طالما أنني عدت محشوراً داخل الباص، وسائق شاب غرّ نبتت ذقنه منذ تسع دقائق، كان يقوده في خطوط متعرجة، والركاب المحشورون غير آبهين بذلك، وإن كانوا يتقيأون على بعضهم البعض، وما أن يتلقى أحد الركاب قيء من بجانبه أو خلفه أو أمامه حتى يواصل حديثه كأن شيئاً لم يحدث، وأنا بدوري لم أصمد أمام بهلوانية سائق الباص وهو يلاعب المقود فتقيأت على امرأة كانت تناقش رجلاً ملتصقاً بها من الخلف وآخر يحيط بها من الأمام، وقد كانت اصابتي ثلاثية وقد نالهم ثلاثتهم ما لفظته مباشرة على المرأة، لكنهم واصلوا نقاشهم عن اليد والأيدي وازدادوا التصاقاً حتى أصبحوا جسداً واحداً معمّداً بقيئي، وضجيج الركّاب يعلو بما لا يتيح أبداً استخلاص عبارة واضحة كاملة، والباص ذات اليمن وذات الشمال.

حين توقف الباص فجأة حسبت أن القابض على جهاز التحكم بالمدينة قد تدّخل مجدداً، واستجاب لرغبتي بذلك، لكن حدة الضجيج والنقاش المحتدم لم تخفت، وما من أحد فارق المحشر سوى السائق الذي نزل وتحلق حوله عدد من منظمي السير، ومن ثم صاروا يضربونه وهو يصرخ "البرتقالي البرتقالي"، و كان للون البرتقالي سحره كما لو كان مفتاح تشغيل أيضاً! خرج كل الركاب من المحشر لنجدة السائق، فهرب من كانوا يضربونه، وكل من كان في الشارع، فقد كانوا جمعاً رهيباً وقد صاروا مشعثين متجعدين ملطخين بالقيء وقد ملئ منهم رعباً كل من وقع عليهم بنظر فولوا منهم هاربين، ثم صعد الرجل - الذي كان ملتصقاً بالمرأة التي تقيأت عليها - الإشارة الضوئية وكسّر الضوء الأحمر وأتبع ذلك بتكسير الأخضر وأبقى البرتقالي عيناً واحدة بين عينين مفقؤتين، وبدأ الركاب يهللون للبرتقالي، وانضم إليهم ركاب أحد عشر حافلة أتت من غياهب المسافات، ومن ثم اعتلى الجمع الرجل الذي كان ملتصقاً بالمرأة التي تقيأت عليها، وصرخ:

"يسقط الأحمر والأخضر.. يعيش البرتقالي"

"لا لون يوقفنا ولا آخر يمضي بنا..نحن من نقرر فدعوا لنا البرتقالي"

"تسقط اليد.. تسقط آلاف المرات.. لا نريد أن يقودنا أحد..لتقطع يد كل من يسحبنا"

ولم يكمل فقد تلقى حجراً فجّ رأسه وبدأ دم أشد حمرة من أحمر الإشارة الضوئية يتدفق منه ولم يعد بادياً من بين الحشد، وقد جاءت حشود غفيرة أخرى تنادي بالأحمر والأخضر اصطدمت بحشد مناصري البرتقالي الذي من المفترض أن أكون منتمياً إليه بحكم نسبي إلى الباص الذي حمل قسماً منهم، كما جاءت حشود أخرى أشد بأساً وغضباً تحمل رايات رُسمت عليها يد تحمل سيفاً، وفُتحت أبواب الجحيم على مصراعيها.

٥

من أنت في هذا المنتصف؟ لا ليل لتقول منتصف الليل ولا ظهيرة ولا هاجرة، والفصول متداخلة تتقاسم اليوم لتمر أربعتها في اليوم نفسه بين برد وغيوم ومطر، وشمس ونسمات عليلة، بين قيظ وحر، وبرودة تدفع الأشجار أن تلفظ أوراقها، تتخلى عنها.

ثم إنه منتصف ماذا؟ ولم يكن هرباً هروبي من وقائع معارك البرتقاليين ومناصري الأحمر والأخضر ورافعي رايات اليد القابضة على سيف، وكلما ابتعدت عن هؤلاء أكثر كلما صادفت ما يستدعي هرباً مضاعفاً عن ما شهدته:

- ثلة من الرجال يرجمون امرأة بحبات البطاطا، وجمع من الأطفال حولهم يهتفون «تعيش البطاطا» ثم يقومون بجمع حبات البطاطا ويأخذونها إلى رجل رابض أمام موقد ليشويها لهم.

- جماعة ترتدي زياً موحداً من البدلات وربطات العنق السوداء يخوضون معركة ضارية مع ذباب وجوههم، وقد كان هناك عدد هائل من الذباب الذي يكفيهم لمواصلة معاركهم إلى ما لا نهاية، حتى أن أحدهم استوقفني وهو خارج الجمع يتبول، قال لي وهو يتخلص من آخر قطرات البول بهز قضيبه، «نضالنا ضد ذباب وجوهنا أنبل من كل نضالاتكم التافهة».

- مظاهرة حاشدة تنادي بإسقاط شفرات الحلاقة، فعرفت بالحال أنهم أتباع من اشتهر بلقب "العبقري" وقد مات عن لحية طويلة جراء هربه الطويل، وقد جرى تداول نظريته الخارقة على نطاق واسع، والتي أثنى فيها على الشفرات والمقصات وكل أدوات الحلاقة الاستئصالية للشعر آخذاً بها إلى مساحة أخرى خارج صالونات الحلاقة والحمامات أو أي مكان يواجه فيه المرء بمرآة، واجداً في الشفرات والمقصات أدواتاً من الأجدى استخدامها في استئصال الظلم وإحقاق الحق، ولم أعرف ما الذي يمنع مناصريه من

المطالبة بإسقاط المقص وآلات الحلاقة الكهربائية القادرة على اجتثاث لحاهم بأسرع من الشفرة.

- مكب نفايات اجتمع فيه أكثر من ألف ألف شخص، ولم أعرف من أين جاء هذا المكب الذي لم أقع عليه يوماً في طريقي إلى بيتي، وقد كانوا ينقبون فيه عن ألماسة هائلة الحجم قيل إنها تظهر من تحت ما يناقضها تماماً، ولم يجد من صدقوا هذه البشارة إلا مكب النفايات مكاناً مناقضاً تماماً للمعان الألماس وبريقه.

- معركة طاحنة تدور رحاها بين من يقولون بأن كوكباً آخر ظهر للتو وهم في طور الانتقال إليه رافعين راية بيضاء كُتب عليها "٤٩٠ سنة ضوئية = ٩٤٦٠ بليون كيلومتر"، وفي مقابلهم من يؤمنون أن لا كوكب يمكن العيش عليه إلا الأرض ملوحين برايات كتب عليها "٤٩٠ سنة ضوئية = إما الجنة أو النار وأنتم في النار لا محالة".

وأنا أواصل الركض بعيداً عن كل ما أشهده بكل ما أوتيت من لياقة بدنية وغير بدنية، ولهذه الأخيرة أن تندرج في فئة الروح التي أريدها أن تصعد حرة – إن هي صعدت- ولم تنحشر في رحاب طرف ضد آخر، ولم تكن تهديداً للأمن القومي الاستمنائي وبالتالي مثار جدل لعقاب ما تستحقه أو لا تستحقه ..لا فرق! كما لم يعد هناك من فرق بين الشيء ونقيضه، مؤمناً أشدّ الإيمان بأنهم جميعاً ضدي، الشيء ونقيضه ضدي، والمساحة المتاحة أمامي هي في تحصين ما يحفظ لي مساحة مهما كانت ضئيلة تقيني الحاصل خارجها والسؤال الملح يتكرر:

كم الساعة الآن؟ ما هو اليوم؟ وفي أي شهر نحن؟

ليس سؤالاً بل أسئلة من الصعب الإجابة عليها، وأنا أخطو إلى البيت والساعة على ما تركتها:

إنها تمام الخامسة وعشر دقائق.

كل أملي بالكناري، وقد تخلى عني هذا العصفور اللعين وما من تغريدة له تقول لي إني أعيش ساعة اكتملت ولم تضف إليها عشر دقائق، هو المتحلل في الأصيص الذي لا أعرف أينه وقد تحللت حتى تغريدته، وخلفي خلف وأمامي أمام، لكن المكان أيضاً لا معنى له إن فارقه الزمن، بادياً أمامي كما لو أنه لا يمت للحياة بصلة بل تجريداً يستقي حضوره من غموضه، ولا تكتب له من حياة ما لم يلحق بزمن أحار ما هو وقد توقفت الساعات وأعدمت الروزنامات وبدا التاريخ الهجري متيحاً لي أن أخمّن ما أنا فيه من أشهر، وأنا أقول جمادى الأولى لا أعرف لماذا، وصوت في رأسي يصرخ بي إنه جمادى الآخرة وهما يتصاراعان في ما فقدته من احساس بالزمن واصلاً إلى رجب وشعبان ولكنني بالتأكيد لست في رمضان كما يشير كل ما حولي، والبشر يشربون ويأكلون آناء الليل وأطراف النهار.

كم الساعة الآن؟

حتى الكمبيوتر لا يجيب وقد غيّبَ التوقيت عني، وما يفعله فيّ وما أفعله فيه لا وقت له، من دون أن أعرف إن كان هذا إيذاناً بالخلود، وما إذا كان عليّ أن أفرح أم أحزن؟ وربما باتساق تام مع ما أنا عليه وأنا أقرأ ما صارت إليه "البوستات" والتغريدات التي ارتكبتها، وأنا ألاحق اليد التي ما زالت على ما هي عليه في البيت الذي صار يصغر عليّ، واليد تحتله من دون أن تقبض على شيء، وصاحبها غائب عني كأني صرت بثلاث أيدٍ، وكم صار يحدوني أن أتحول إلى ديك بثلاث أرجل أو ثلاث أيدٍ لا فرق، ما يتيح لي أن أصير مدركاً للأوقات حسب التواقيت الديكية.

لا فجري فجر، ولا ليلي ليل، وما بينهما لا أعرف ما هو الوقت، والأشهر متدافعات ولا أعرف ما حلّ بالسنين، ويا لخوفي إن كان مرور الوقت قد وصل السنين، ولم يعد في مقدوري احتمال ضياعي وأمواج الزمن المتلاطمة تقذفني إلى شواطئ لا عهد لي بها.

توقي لليلى يقف ضد الزمن، لا يأبه به ولا شيء تغيّر فيه، لا بل استعر بأكثر مما كنت عليه وقد أمسيت متغمداً بالحنين، ومع ليلى يضاف المكان إلى الزمان لا أعرف شرقي من غربي، ووجهتي نحوها دوماً، وهي في المجهول تماماً بالنسبة إليّ وقد توقفت عن الاتصال بي، وها أنا اتصل بها وما من مجيب، وهذا مبهج طالما أني لم أجابه بالصوت الآلي الذي يخبرني أنها خارج التغطية... "سأستعطف الأيام فيكِ لعلها بيوم سروري في هواك تؤوب".

عدت إلى كمبيوتري، ونبشت الصفحة الزرقاء والأخرى التي أغرد بها، وقد بدت كلا الصفحتين صحراء مجدبة، ورحت أتعقب غيرها من صفحات تلقفت مني اليد وقد بدت خالية تماماً من ذكر اليد، وفي مأزقي ذلك لم أنتبه للرسائل التي كانت تنتظرني، ورحت أتفقدها بما يزيد من دقات قلبي وهي تمنحني جرعات متزايدة من الأخطار المحدقة بي، وأصحاب تلك الرسائل مصرون أن يحولوا ما هو افتراضي إلى واقعي، وهم يتوعدوني بمصير أسود، أقل ما فيه أن أتحول إلى جثة متفحمة أو مقطعة، أو أن تحز عنقي، وفي رسائل أخرى تمّ التأكيد فيها على أن مرسلها سيعرف لا محالة كيف يصل إلي، وأني حينها لن أنجو أبداً مما يتوعدني به من مصير أسود، وهذا تكرر في أكثر من رسالة، ورحت أفكر ما الذي فعلته حتى أستحق مصيراً أقل ما فيه هو الموت؟ ومن هم هؤلاء الذين يتكبدون عناء البحث عني وكل ما فعلته أنني بدل أن أوجّه نداءً خاصاً بصاحب اليد انسقت خلف جماليات الكتابة عن اليد وما بمقدورها أن تفعله إن هي تُركت حرة؟

أمسى الافتراضي مساحة للخوف لها أن تفوق الواقع خوفاً، بحيث أصبح ملاذي سابقاً مماثلاً لما ألوذ منه، متشابهان بالخوف، خوف واقعي وآخر افتراضي، وإن كان هذا الأخير أشد فداحة لأنني اعتقدت أنني سأكون بمنأى عن الخوف فيه بوسائل كثيرة أولها أن اسمي مستعار والحصون كثيرة بيني وبين من يفكرون بإلحاق الأذى بي، وكم كنت واهماً!

يبقى غياب القابض على جهاز التحكم بالمدينة فاقعاً، ما من تدخلات

في ما شهدته المدينة في الآونة الأخيرة، وعلى ما يبدو أن دوافع تدخله كامنة في ملله، وهو قابض على جهاز لا حاجة لأحد به والمدينة ماضية على إيقاع استقر عليه بشرها وحجرها، بوصفه أول وآخر ما توصلوا إليه لهاثاً وفقراً وفاقة، وكل تلك الصراعات الأزلية المتواصلة بين قلة ظالمة وكثرة مظلومة، ونواميس وأعراف وعادات أمست والبديهيات صنوين، وهذا كله بالنسبة إلى القابض على جهاز التحكم، فيلم بلغت فيه الرتابة حداً قاتلاً بالنسبة إليه، وتدخلاته السابقة كانت تدخلات يائسة لحرف السيناريو عن مساره الأحادي.

يمكنني أن أؤكد لكم بحكم معاصرتي لتدخلات القابض على جهاز التحكم بأن ما شهدته بدءاً من الإشارات الضوئية لا يحمل أياً من بصماته، لكنني على يقين بأنه في غاية السعادة الآن وهو يراقب تخلخل كل شيء في المدينة الرتيبة، متنقلاً من مفاجأة إلى أخرى، وهو لا محالة لن يتدخل حتى إن همّ سكان المدينة بالتهام بعضهم البعض، فمتعة مراقبة ما صاروا إليه وما يقومون به، والنهاية المفتوحة التي ما زال عاجزاً عن توقعها تضاهي انقراضهم، وما الانقراض إلا احتمال من احتمالات نهاية الفيلم.

٦

المطبخ حصين.

الغرفة المجاورة تفكر بالانقضاض عليه.

ولكل شقة أن تحتل الشقة المقابلة، وهناك عراك بين الأعمدة والأساسات لا يمكن للأبواب والنوافذ أن تتدخل فيه.

للمطبخ الحصين أن يصير المؤشر على حتفي، ما عاد فيه ما يؤكل.

الجوع يتمطى، وها هو يمضي جيئة وذهاباً سجين معدتي.

يجب أن أمضي إلى الدكان القريب لأطلق سراح الجوع، حينها يمسي المطبخ حصيناً بحق، ويصبح قراري ألا أخطو خارج البيت منيعاً.

الدكان مغلق!

لا بأس فالدكان الثاني يبعد أمتاراً قليلة، وها أنا أسابق ظلّي وتتسابق حواسي في ما بينها لتبيان ما إذا كانت أبوابه مفتوحة، وقد كانت كذلك، ملتقطاً ذلك بواسطة حاسة الشم قبل النظر، مع أنه ما من رائحة منبعثة من الدكان، وما من أحد بداخله، وكل ما فيه ملون، وقد احتلت أرففه وثلاجاته ومساحته كاملة حلوى الأطفال الجلاتينية بألوانها الفاقعة عديمة الرائحة، كميات هائلة تكفي ألف ألف طفل، ومضيت ألتهم وألتهم منها، إلى أن أتخمت بها الجوع سجين معدتي، فصار يستغيث كما لو أنه أخرج من زنزانته ليتلقى جلسة تعذيب ومن ثم أعيد إليها، ومع ذلك أخذت ما استطعت من تلك الحلوى، وواصلت بحثي عن دكان آخر.

لم أفاجأ بأن جميع المطاعم موصدة، وحين أوغلت بمسيري أكثر في المدينة المهجورة كان كل شيء مغلقاً، وأصبحت تترامى إلى مسامعي

أصوات إطلاقات نارية، وكلما مشيت أكثر كانت تعلو، كما لو أنني كنت أتوجه إلى مصدرها.

أدرت ظهري للرشقات النارية وصرت أركض عائداً إلى بيتي، ومع ذلك لم تنخفض أصوات الرصاص بابتعادي عن مصادرها، بل صارت تعلو، كما لو أني موقظها وأنا عائد، بل صارت كثيفة ومتنوعة والبنادق لا تلتقط أنفاسها، وما أن فتحت باب البيت حتى صار صوت الرصاص محتلاً كامل المدينة لا يتوقف أبداً.

أفرغت ما في جيوبي من حلوى الأطفال، واصلت الإنصات للرصاص بهلع، وقد كان هناك من يطلق الرصاص على بعد أمتار قليلة عن بيتي، بما يتيح لي سماع صوت الرنين المعدني لفوارغ الرصاص وهي ترتطم بالأرض.

وبما أن إنسانيتي تقاس بحجم تأقلمي، فسرعان ما تحول صوت الرصاص إلى موسيقى تصويرية دفعتني للقيام بشيء..أي شيء، فإن كانت الموسيقى تصويرية فلابد لها من فعل ترافقه غير التمدد على الأريكة، وهكذا لم أجد إلا الكمبيوتر، فمضيت إلى صفحتي الزرقاء وصفحتي المغردة، لأجد كل رسائل التهديد السابقة قد اختفت تماماً، واستبدلت بفيديوهات ما أن شغّلت أولها، حتى أغلقته بأن ضغطت على كل مفاتيح لوحة التشغيل في الكمبيوتر، ورفعت رأسي إلى أعلى أعدّ الرصاص المنطلق من الجهة الشرقية، والجهة الشمالية، وكل ذلك لم يمحُ حقيقة أن من طالعني بالفيديو ليس إلا الرجل الأشيب صاحب اليد الاصطناعية.

الآن صار على إنسانيتي أن تقاس بحجم جبني، وأنا لا أجرؤ على تشغيل الفيديو مجدداً، لكن ماذا إن كان قد شبّه لي، والإجابة الحاسمة أمست أمامي إذا عدت وشغّلت الفيديو ولم أعد من أتباع الظن. إنه هو يقيناً، بمجرد أن بدأ كلامه بدأت يداي بالتعرق وقد كان هذا منعكساً قلقاً جديداً لم أختبره من قبل، ويبدو أن إضافته على منعكسات القلق والخوف الكثيرة

التي كانت تعتمل بي، جاء صائباً أمام هول المفاجأة التي لم تتوقف عند هذا الحد وهي تزداد فداحة مع سماعي لما يقوله بالفيديوهات، مضافاً إلى ذلك أنها أرسلت جميعاً من صفحة تحمل اسم "اقطعوا يد من سرق اليد".

طبعاً اسم الصفحة يوحي بأنها أنشئت خصيصاً لي، و"واو الجماعة" تقود إلى أن هناك مجموعة متحلقة حول الرجل الأشيب ستقطع يدي، لكن مشاهدة الفيديوهات أصابتني بتشويش كبير دفعني لالتهام خمس قطع من حلوى الأطفال، ثلاثة منها حمراء اللون ترافقت مع اكتشافي بأنني صرت ملهماً لهم بوصفي مصدراً لتسعير غضبهم، وهو مصدر مجهول الهوية حتى الآن!

الرجل الأشيب يقف وخلفه عدد كبير من الفتية يرددون العبارة الختامية لكل مقطع يتلوه، بما في ذلك حتى العبارات التي كانت ثقيلة جداً على الهتاف مثل "والذي كان يبحث عن يد ليستبدلها بيد على يده أن تكون مقطوعة أولاً، ليعرف قيمتها" حتى أني أعدت ترديدهم ذلك كما الهتاف مرات ومرات، وازدردت قطعة خضراء من الحلوى وأنا أنتقل إلى فيديو كان فيه الرجل الأشيب من دون جوقة الفتية من خلفه، مستبعداً الحديث عن اليد وقد خصص كامل ما يقوله لمهاجمة رماة البيض واصفاً إياهم بالمسرفين السفلة "يا سفلة من أين تأتون به وسعره بسعر الذهب، ولمَ تقذفونا به؟ من زوّدكم بالبيض وأحلام الناس صارت بصفرة صفاره من شدة الاشتياق إليه؟" فقلت لقطعة الحلوى الصفراء وأنا أحملها إلى فمي، كوني بيضة! ولم تكن.

كل الفيديوهات أظهرته يلوح ويتوعد بيد واحدة، لكن ما أصاب مني مقتلاً ظهوره في إحداها بيدين، يدين طبيعيتين، ولم يكن يتحدث فيها لا عن البيض ولا الدجاج، بل عن اليد وجوقة الفتية خلفه حتى أنهم رددوا عبارة ختامية له تقول "من سرق يدي فقد سرق أرواحكم"، قالوها بمنتهى الثقة والحماسة، وهو يلوح بيديه كما لو أنه مايسترو.

بدا ظهوره بيدين متناوباً، فكلما شاهدت فيديو يظهر فيه بيدين، ظهر في آخر وهو بيد واحدة، وحينها وللمرة الأولى صرت أدقق في ملامح وجهه، وأتأكد ما إذا كان هو نفسه من يظهر في جميع الفيديوهات، بعينيه السودواين المقطبتين، وأذنيه الكبيرتين نقيض فمه الصغير الأشبه ببذرة عباد شمس، كما لو أنه أمضى حياته ينصت ويتلقى الأوامر من دون أن يتلفظ بكلمة، وفمه حين يصمت ليلتقط أنفاسه يكاد يختفي لينعم بالظلال الوارفة لأنفه الأفطس، وحين يتكلم فإن هذا الفم العجيب يدفع للشك في قدرته على مواصلة استقبال الكلمات التي تتسلق حباله الصوتية، لكن الكلمات والعبارات الخارجة من فمه تواصلت إلى ما لا نهاية، والعلامات الفارقة لوجهه هي هي في كل الفيديوهات.

أمسى الإنترنت بحراً متلاطماً من الدعوات والبيانات والنعوات والمراثي والارشادات والتنديدات، وما بينها أخبار الانتصارات ووقائع الهزائم والانسحابات، وكله في سبيل الثأر ممن سرقوا اليد، وأتباع الرجل الأشيب يخوضون معارك طاحنة مع من سرقوا اليد، وقد نجح الرجل الأشيب في ضم جماعة اليد القابضة على السيف وأنصار الأحمر والأخضر تحت لوائه، وقاموا مجتمعين بسحق أنصار البرتقالي ممن يعتبرونهم من المفرطين باليد، ولم تحسم معاركهم مع من يعتبرون أن يداً اصطناعية لن تقوى على أن تقبض على شيء وهي مزيفة وباطلة لا محالة، فكانت معاركهم المتبادلة بين كرّ وفرّ، أما الذين بدأوا انطلاقتهم برمي البيض فقد غدا كلا الطرفين ضدهم، ومع ذلك لم يسجلا عليهم أي انتصار يذكر، خاصة بعد نجاح رماة البيض بإطلاق سراح السجانين ورجال الأمن وإعادة المسجونين إلى الزنازين مجدداً، وقد بيّنت صور وفيديوهات كثيرة، حجم ما ألحقه رماة البيض بأعدائهم، والتي تكررت مع حفاظها على مظهر ثابت من الوحشية، تكررت تكراراً لا يعلّم الحمار بل يروّض الانسان على قبول أي شيء، وقد تحوّل ما أشاهده إلى فواصل ترفيهية، أستقبلها بعماء مشابه للفتية في جوقة الرجل الأشيب وهم يهتفون باستعادة ما هو أمامهم، وأنا أشاهد الأوصال المقطعة كما ولو

أنها في فيلم تحريك، وقد زال عني تماماً شعوري بالخطر، لإدراكي أن كل ما أُرسل إلي قد انتشر في كل مكان، وأرسل لأعداد هائلة من البشر ولم أكن إلا واحداً منهم، حتى أنني لم أفكر في إخفاء اليد الاصطناعية، وقد صرت متأكداً من أن المئات لا بل الآلاف منها موجود في المدينة وقد استخدموها كما استخدمتها، ومن ثم أسقط من يدهم، أسقط من اليد الاصطناعية أو الافتعالية، وهي لم تصبح يداً من لحم ودم، بل تبدد لحم كثير كرمى لتلويحتها وقبضتها، وأهرقت دماء كثيرة لم تلطخها، وما زال ناظروها يرونها بيضاء.

٧

ما أن فتحت عيني حتى رأيتُ حماراً وحشياً يركل الأبواب الموصدة، احتجت لثوانٍ، لأدرك أن هذا ما شهدته في المنام، وأن الأبواب ليست إلا باب غرفتي، وأن النوافذ صارت أبواباً ثم عادت نوافذ حين حلت عليّ اليقظة تماماً.

أيقظتني ذبابة، هذا كل ما حصل في الواقع.

لو أيقظتك يا ليلى، لرأيتِها أسراب ملائكة مهجّرة من الأرض التي أنت عليها الآن.

الذبابة أقوى من دوي المدافع، وأنا أكثر يقيناً بأن العراك بين الأعمدة والأساسات أشد وأعنف والبناية ترتج من القذائف والحمم التي تمطر بها المدينة. في أي أرض أنتِ الآن يا ليلى؟ "ألا يا غراب البين إن كنت هابطاً بلاداً لليلى فالتمس أن تكلّما".

تجدر بي الإشارة إلى أنني حمار غير وحشي، كما أكدت في مناسبة سابقة، وإن تخطط جلدي مرتين، الحمار الوحشي نذير شؤم.

إنها الخامسة وعشر دقائق عصراً. تلاعبت بالعقارب، دوّرتها أوصلتها السابعة أتبعتها بالقول إنها السابعة صباحاً، فتحت باب الشقة وتفقدت اللمبة بغرة الباب كانت تهتز، عدت وغيّرت الوقت إلى الثامنة، فتحت الباب فإذا "اللمبة" ثابتة في نورها.

فاتني أيضاً القول إن تحكمي بضوء اللمبة بواسطة عقارب الساعة جرى والقصف متوقف، والهدوء المهيمن يوحي بأن كل شيء قد أخمد وصمت للأبد، كما أن تكراري لعبة الضوء والزمن كان بهدف تزجية الوقت المجهول تماماً بالنسبة إلي، والالتهاء عن الجوع بتوصلي إلى أن "لمبة" الباب لا يهتز ضوؤها إلا في السابعة، كما لو أنها تترقب مغادرتي فترتبك: تريد مني أن أودّعها بفتلة صغيرة من يدي.

انقيادي وراء تفسير على هذا القدر من الشاعرية سعّر من جوعي، فعاجلته بأربع قطع من الحلوى كانت آخر ما تبقى لدي، فخمد لهنيهة ثم استوعب الخدعة فعاد ناراً تأكل أحشائي، فخرجت من البيت طالباً ولو كسرة خبز.

بدت المدينة طبيعية جداً، والناس في الشوارع وكل شيء في مكانه، وما من حجر إلا على حجر، ولا من بناء متهدم، أو آخر يحمل فجوة أحدثتها قذيفة أو ثقب لرصاصة، حتى أني استوقفت أول من وقعت عليه من المارة بعد أن خفضت رأسي الذي كان مرفوعاً يستطلع الأبنية والعمارات وسألته:

- ألم تكن المدافع تقصف المدينة ؟!

- تقصد مدفع الإفطار؟

أجابني وهو يضحك. فسألت آخر كان يمضي مسرعاً:

- هل نحن في رمضان؟

- كل سنة وأنت طيب.

قال لي ذلك من دون أن يتوقف.

لم يكن من رمضان! فأبواب المطاعم مفتوحة على مصاريعها، و ها أنا آكل مثل المجنون في واحد منها، وبمجرد أن فرغت من الصحون والأطباق الكثيرة التي كانت أمامي، اكتشفت أن كل من في المطعم متوقفون عن الأكل وجميعهم يحدّقون بي، وما أن قال أحدهم لي "ما رأيك أن تأكل الصحون والطاولة؟" حتى اندلعت ضحكة كبيرة جداً شارك فيها كل من في المطاعم، ومن ثم عادت الشوكات والسكاكين والملاعق إلى عملها، وعلا صخبها وقرقعتها وهي تعالج ما في الصحون، فخرجت هارباً، فإذا بي أمرّ من أمام جامع الشيخ فضل وثلة من أتباعه أمام الباب يتبادلون الحديث، فألصقت على وجهي ابتسامة عريضة، بادلوني إياها بداية بوجوم أوقف

حديثهم، وعبوس رمى على جبهة كل واحد منهم بضعة خطوط مشوشة، متبعين ذلك بنظرات استهزاء، انتهى مروري بهم بأن قام أحدهم برمي حجرة علي متبوعة ببضع صفرات جعلتني أحث الخطى مسلماً ظهري لهم وهو متشنج مترقب أن تنال منه قبضة أو ركلة، لكنهم اكتفوا بحجرة واحدة وثلاث صفرات ونصف فقط لا غير.

تأكدت مع مروري أمام مركز الأمن، أن خريطة أقدامي قد أصابها العطب من قلة استعمالي لها في الآونة الأخيرة، إذ أصبحت لا تحيد عن المهالك، تمضي بي قدماً نحوها، وأنا أرى سيارات والد ليلى واقفة الواحدة خلف الأخرى وحرسه متحلقون قربها، ويا لسعدي وحظي الجيد فقد كانوا مشغولين عني بمشاهدة فيديو على هاتف واحد منهم، وقد مررت بهم مرور الوجِل الخائف المرتعد.

حان الآن موعد ترحيبي بكم مجدداً في محشر النقل العام. ويبدو أن نسبة الولادات المدهشة التي تحققها المدينة قد أفضت إلى أن أكون واقفاً على الدرجة الثانية بين باب الباص ومكان السائق، وقد كان دخولي إلى أول الباص أو منتصفه أمراً مستحيلاً في البداية، لكن مع البشر المضافين عند كل محطة يتوقف فيها الباص، صعدت الدرجة الثالثة، وفي المحطة التي تليها صار مكان السائق خلفي، وبعدها أصبحت في منتصف الباص أنصت لحديث عجيب يدور بين أب أشيب على مشارف الخمسين وابنه الشاب، والأول يقول له:

- ضع يدك بيدي ولا تهتم بأخوالك وأياديهم القذرة؟

- لم يفعلوا شيئاً لمستقبلي، وحين رفضت العمل معهم قالوا إني أعض اليد التي تطعمني.

- لا تهتم! فالأيادي الملطخة بأوساخ هذا العالم تجوع إن أطعمت.

- صرت أعرف يا أبي، اعذرني كنت أعمى أستهزئ بقبضك القوية والحانية، كنت لا أقدّر يدك التي تمسح جبينك، وأنت لا تطعمنا إلا من عرقه.

وما كان من الأب إلا أن أمسك بيد ابنه وصار يضغط عليها إلى أن نفرت كل عروقها، وراح يربت باليد الأخرى على كتف ابنه الذي تدافعت من عينيه ثلاث أو أربع دمعات، قائلاً له بثقة وقوة:

- لا تخف من شيء يا ابني؟ أنا موجود، ومن يفكر أن يمد يده عليك سأقطعها ! الله معنا، هو العالم بما في القلوب والأفئدة، توكّل عليه.. وقل لن يصيبنا إلا ما كتبه الله.

بدا لي هذا الحديث فضائياً، هابطاً من كوكب آخر، ولم يجد الأب والابن إلا هذا المحشر مكاناً ليتجاذبا أطرافه، وقد امتلأ بكل ما يقف على النقيض من الازدحام والجو الخانق المهيمن على الباص، والرصانة لا تفارقهما وهما يناقشان حدثاً جللاً في حياة الابن على ما يبدو.

لم يقف الحوار بين الأب والابن حائلاً بيني وبين تجدد دهشتي بقدرة الباص السحرية على الحشر والتفريغ كلما توقف في محطة، إلى أن صادفت ما يستدعي دهشة أكبر حين توقف الباص عند الإشارة الضوئية لمفترق طرق تكدست فيه السيارات وقد بحت أبواق السيارات وهي تصدح من كل حدب وصوب، والاشارة الضوئية لا تومض بالبرتقالي، بل مستقرة عليه، والشرطي يصرخ بالسيارات وسائقيها، وحين طال الأمر بدأ سائق الباص بسيل من السباب والشتائم طالت كل شيء، ومن ثم ترجل من الباص، ومضى نحو الشرطي صارخاً، ما شجع بقية السائقين على الترجل أيضاً من سياراتهم والتجمع حول الشرطي، وقد أمسى صراخاً مشتركاً بين معشر السائقين، وليخرج الشرطي من بين الجمع ويركض ليوقف السير في الشوارع الثلاث التي تصب في المفرق، فاتحاً السير أمام الشارع الذي كان فيه محشر

النقل العام وكنت فيه، والسائق يمضي بالباص وهو يلعن المدينة وكل ما فيها، متباهياً بشجاعته وكيف حرّض السائقين وكيف استجاب له الشرطي، مخاطباً إيانا نحن الركاب المحشورين:

- لا يعرفون القيادة ما لم يكن من أحمر وأخضر، أصلاً البرتقالي من المحرمات لأنه يدفعهم لاتخاذ قرار، وقد تعودوا أن يقرر الأحمر والأخضر عنهم!

وحين لم يتفاعل أحد من الركاب مع ما قاله السائق الفيلسوف، أنزل العقاب بهم، ولم يتوقف في المحطة التي تلي مفترق الطرق، وعلا صراخ بعض الركاب وقد فوت عليهم السائق محطتهم، كما أن من كانوا ينتظرون أن يستقلوا هذا الباص لم يتح لهم ذلك، وراح بعضهم يركض خلفه، وقد كان من بينهم رجل أشيب يركض ويده في جيبه، كما لو أنها مقطوعة، وقد اعتصر قلبي حزناً عليه، والخوف من ملامح وجهه العجيبة التي اجتمعت على تصدير الخيبة.

ومع وصولي المدرسة كان الضجيج والصراخ بانتظاري، دخلت إلى الصف المتخم صخباً، ومضيت أشرح درسي عن العدد والمعدود، وحين كنت أكتب على اللوح "يعامل العدد ثماني في حالة التذكير ..» رُشِقت بيضة على اللوح، جاءت ليست بعيدة عني لكن لم يطلني منها شيء، فتحاملت على نفسي وواصلت الكتابة «معاملة الاسم المنقوص»، إلا أنني فشلت في المتابعة، وضعت نقطة رحت أضغط عليها بالطبشورة لما يقرب الدقيقة، ثم خرجت من الصف، وما أن صرت في الممر حتى انطلقت من التلاميذ ضحكة هائلة موحدة، وعمّ الفرح الصف الذي راحت ترافقني مظاهره الصوتية إلى الباب الخارجي للمدرسة.

في الشارع مجدداً، ما من تدخل يلوح في الأفق للقابض على جهاز التحكم بالمدينة، يمكن استشعار ذلك من رائحة الهواء، وكلما مشيت

أكثر اتضح أنه ما عاد في وارد الضغط على مفتاح الايقاف أو الإخفاء أو أي من المفاتيح.

آه لو كان جهاز التحكم بيدي!

«البين يؤلمني والشوق يجرحني والدار نازحة والشمل منشعب».

الحوادث غير اليومية للطبيب الأخير

ترك اتشاحها الطويل بالسواد أثراً على مذاقها.

وهكذا عرّفتني لذتها بمنتهى حزن ومطلع مأساة، ومع انهماكي في تفسير أثرها المدمر عليّ كنت أراها تمزج فرحاً طارئاً بحزنٍ أصيل.

كانت طريقة جلوسها على تلك الكنبة المخملية الوحيدة مدعاة للجنون، والإحساس العارم بأن عدداً هائلاً من خلاياي ترتطم ببعضها البعض، فقد كانت تُظهر قدراً ضئيلاً من جسدها المترامي، نقيضاً قاتلاً لما تركته مغموراً بالسواد.

أمسى ذلك مظهراً ثابتاً من مظاهرها، فهي إن تعرّت تماماً يبقى منها ما هو مستور، ويمسي إيغالي بها أكثر فأكثر أشد إيلاماً وإلحاحاً وقد كان مستورها لا يكشف أبداً، وإيغالي بها بلا منتهى، سواء فعلت أم لم أفعل!

بدا تخيلها خارج هذه الغرفة معجزة، أما الخروج فمغامرة لن أنجو منها حتماً.

هي قالت لي أن أبقى ولم تستخدم عبارة "إلى الأبد" فهذا ابتذال لا محالة أمام جملها المقتضبة وصوتها الذي يتبدّل يومياً.

بدا كل ما يحيط بها مستعداً للذود عنها، هي الوحيدة تماماً.

محاطة بهالات تستعر وتستكين، هالات لا دراية للملائكة بها، تصونها، تحنو عليها، وبالتأكيد تذود عنها.

ولذلك صرت أفكّر بالابتذال كتهديد لها، أو أن تقع في الثرثرة والهذر فتبدو امرأة أخرى!

وتخيلتها مرةً تخلط بين الفحش والبذاءة، لا لشيء إلا لأن فحشها استعصى على الفهم، يصعب توقع بدايته أو نهايته، تتبعه نوبات زهد لا تصمد دقائق معدودات.

لم أفارق الغرفة التي كان زوجها يحتضر فيها، وهي تدفعني لأن أخنقه بكلتا يدي.

هي من أودع تلك الرغبة المتوحشة فيّ! أقسم على ذلك!

ليمت!

ما همّي إن قتلته؟

ما همّي إن استبقتُ الإرادة الإلهية أياماً؟

هو ميتٌ لا محالة وإن جاؤوا بي إلى هنا لأنقذه بتأخير موته.

مهلاً! اللعنة على هذه الأفكار!

لا! يجب ألا يموت.

موته يعني المضي معها في سِفر الخروج.

الخروج مغامرة لن أنجو منها حتماً.

يبقى فنبقى

سِفر تكوينٍ هي

في البدء..

منتهاها بدء أيضاً.

١

يموضع الزمن مروره بنقاطٍ مضيئة وأخرى معتمة!

تتجاور النقاط، تتلاصق، تمسي خطاً، من دون تمييز بين نقطة مضيئة وأخرى معتمة.

المهم: الخط الذي يمسي مساراً يقود إلى الحتف.

الحتف وراد من دون فلسفة في مدينةٍ تلتهمها الحرب، والمقتلة ضاقت بها الجغرافيا، بدت التضاريس سهولاً مترامية صالحة للركض بأعتى السرعات نحوه.. نحو الحتف.

ليس في نيتي إلحاق الأذى بالأمل، لا قِبَل لي ولا طاقة، أستظله.. أمضي .. أواصل.

يومٌ آخر ونجاتي متواصلة يداً بيد مع عداد القتلى الذي لا يكلّ ولا يملّ، وأنا لم أُحتسب بعد، لم أردَ رقماً تافهاً في نشرات الأخبار.

سنقاتل حتى آخر سوبر هيرو..

سنقاتل حتى آخر باربي..

الحياة وردية كما باربي، ويمكنني مشاهدة التلفاز، ما زال هناك كهرباء!

سيجارتي ممتدة أمامي وشفتايّ تتمسكان بها، أرطبهما ولساني وأعماقي السحيقة برشفة القهوة، ثم أعيد السيجارة إلى شفتيّ فتتمسكان بها أكثر، أشعلها وأعبُّ الدخان..

يا الله ما أجملها الحياة!

لا أريد نهاية لجلوسي هكذا، لا أريد أن أشغل حيزاً غير هذا الذي أشغله الآن على أريكتي، لا أريد لسيجارتي أن تنتهي، ولتتوالى الثواني والدقائق شفّةً شفّةً.

انتهت سيجارتي.

أحرقت تبغها كاملاً.

أوصلتها بر الفلتر، وها هي نافقة في المنفضة.

أشعل سيجارة ثانية.

اللعنة!

لا شيء فيها من نعيم الأولى، تحترق وتحرقني، أوصلتها هي أيضاً بر الفلتر. شيّعتها، دفنتها في المنفضة من دون دعاء لها بالرحمة والنجاة من عذاب القبر، وهكذا لن تنبعث العنقاء من رمادها.

اللهم آمين!

انقطعت الكهرباء. في هذا البيت أيضاً تنقطع الكهرباء، كما كل المدينة، المدينة التي تئن حجارتها ويُسمع لها أصوات لا عهد لي بها، متألمة هي، ترسم يومياً أشباح من يفارقونها على الجدران والأسفلت والشبابيك، لقد ضاقت أحشاؤها بجثثهم وهم يُدفنون ولا يُدفنون.

عليّ توضيح أمر هام جداً:

انتقلت البارحة فقط إلى بيتٍ جديد، وأرجو منكم ألا تعتبروني مجنوناً أو أحمق، أو شيئاً من هذا القبيل لإقدامي على شراء بيت جديد في مدينة تنهشها الحرب. الأمر لا علاقة له بأن هذا البيت أكثر أماناً، ولا هي نزوة حربية مموهة لا يمكن التقاطها على رادار المنطق الإنساني الممزق، إنه فعل مرتبط بتحقيق أمنية أخيرة، وليكن ما يكون بعدها، فهذا البيت ليس إلا بيت جدتي وقد باعه خالي منذ أكثر من عشرين سنة. اشتريته بتراب الفلوس، بثمن بخس دفعته عن طيب خاطر وفرح مدمر لقاء أن أحيا من جديد والموت ظلي وظل من لا ظل له في هذه المدينة.

إنه مسرح أحلامي، ما من منام تسلق نومي منذ زمن طويل إلا وكان هذا البيت مكاناً لوقائعه أو بعضاً من أحداثه.

لم أقع على أحلام في ليلتي الأولى فيه، تواجدي في مسرح أحلامي تركني من دون أحلام، كمن امتلك المسرح وقتل المخرج والممثلين وتقنيي الإضاءة، وأمسى مسرحاً من دون مسرحية.

هاكم سيجارة ثالثة، وهي هذه المرة لا معنى لها، لا هي جنة ولا جحيم، لا تدغدغ ولا تحرق، محايدة تدفعني لأفكار سخيفة قاتلة، كأن أُجري تعديلاً مفصلياً على رغبتي الأخيرة قبل إعدامي: السيجارة الأخيرة! لكن ماذا لو كانت بطعم سخيف؟ ما العمل حينها وآخر ما تذوقته من الحياة سيكون بهذه الرداءة!

انقطع كل ذلك مع رجرجة هاتفي المحمول وهو ينخر عظام الطاولة الخشبية الموضوع عليها.

أجده شاةً مذبوحةً تناجيني أن أجيب، وأنا أقول لن أضعف وأجيب، دعوني على أريكتي، دعوني أستمتع بالسجائر وأرطب عمري بالقهوة في بيت جدتي.

تتوقف الشاة المذبوحة التلفونية عن التمرغ بخشب الطاولة والأنين والمناجاة.

يعاود من جديد.

أتجاهله.

ثم يعاود من جديد وهو في يدي وأنا أحاول تحويله من رجرجة لجوجة قاتلة إلى الصمت..

عبثاً!

- ألو

- نعم ..نعم أنا هو!

- نعم أعرفه.

- تقصدين المستشفى المضاء؟

- أستطيع المجيء مساء.

- تقريباً الساعة الثامنة؟

- مساء الخير والأمل والرواق.. القطة سوداء بإذن الله.. النجم ساطع سبحان الله.. تمام حفظتها.

- اتفقنا!

٢

لا سماء الآن!

كنت متأكداً من غيابها المؤقت، غياب السماء التي عشتِ حياتك على الأرض تودين الوصول إليها بشكل لائق، وأن يجري استقبالك فيها وقد صرتِ زرقاء مثلها من شدة الورع، الأزرق عندئذٍ لون المغفرة، وقد تعذر تماماً عليك معرفة لون السماء السابعة.

لا أعرف إن كنت قد أخبرتك بذلك، أو أوردت أي شيء عن الغيوم التي من كثرة ما راقبتها من شرفتك حسبت أنها أصبحت أشد متانة ولا تذرف ما تحمله بسهولة، وكل غيمة بساط سحري يقلكِ إلى سماء سابعة يا جدتي.

لست في نفق ولا أنتظر ضوءاً في آخره!

لا تؤرقني الحواجز الكثيرة التي سأعبرها لأصل المستشفى المضاء. سأخلّف ورائي تلك الأشلاء التي أعاينها يومياً، وأنشودة آلام وصرخات وأوجاع الجرحى والمصابين التي تصدح يومياً في أرجاء المدينة.

إنه مستشفى يحافظ على أمنه وسلامه من دون أن يرفع راية بيضاء، ولا يمسسه المتحاربون بسوء، ولا ينالونه برصاصةٍ مقصودة أو طائشة، ولا قذيفة موجهة أو عشوائية ولا حتى شظية تعطس بها قذيفة على مقربة منه من دون قصد.

الضوء المفتقد ليلاً حاضر أبداً عند ذاك المرتفع الذي يشغله المستشفى المضاء، وكل محاولاتي أن أتذكر ما كان اسمه باءت بالفشل، فهو "المستشفى المضاء". ومهما حاولت القذائف والصواريخ والانفجارات محاكاة ضوئه فإنها سرعان ما تشعر بالعجز وتخمد مهما طال ضوؤها وتسببت من حرائق، بينما المستشفى ثابت على ضوئه ساطعاً متألقاً والمدينة بكل أحيائها تتجرع حزنها وهي تفقد آخر ذرة كهرباء.

أشعر بالبهجة والضيق معاً، بمقدور الترقب أن يحمل كلا الشعورين، فحين تبهت البهجة يصحو الضيق، وبالكاد أتنفس، وهذا لن يمنعني من وصف هذه البهجة بالأصلية، وأنا أبحث عن تفسير لها أكثر من الضيق المعتاد عليه متى كنت وحيداً من دون جرحى أو قتلى، ربما البهجة متأتية من قرب لقائي بمريض طبيعي يعاني احتشاء قلبياً أو يدخل غيبوبة جراء لا أعرف ماذا!

الفضول بهجة أيضاً، اجتياز طرق وحواجز جديدة، الوصول إلى ذاك الصوت الذي حمله الهاتف وهو يتجسد أمامي امرأة خارقة.. لا بد أنها خارقة!

أمامي الآن تسع سجائر تركها لي أبو رعد!

كان عليّ الاستعانة بأبو رعد! ويا له من مخلّص! رنتان من هاتفي وحضرت سجائره السحرية في الحال. هو يعرفني وأنا تعرّفت عليه بالأمس فقط، قال لي "أنت دكتورنا الغالي.. ومن لا يعرف الدكتور؟ .."

أينما حللت هناك أبو رعد، ربما يكون أبو صخر أو أبو الجماجم أو أبو الليل أو أبو أي شيء، وجميعهم يمسون في خدمتي، يمارسون الطيبة معي ولا أعرف عدد ضحاياهم أو إذا ما كانوا يكتفون فقط بحراسة الحي الذي أنا فيه.

لكن لماذا ترك لي أبو رعد تسع سجائر وليس عشرة؟

سؤال مصيري كما كل سؤال لا إجابة عليه!

خلّف أبو رعد عدا السجائر آثار حذائه العسكري على البلاط، ولا أعرف ما إذا كانت السجادة في الصالون قد امتصتها، فما من أثر يدل على حذائه على سطح السجادة حزينة النسيج، بينما هي حاضرة بقوة على سطح البلاط باتجاه واحد.

نقصت سجائر أبو رعد واحدة، أصبحت ثمانية.

دخلت ملكوتاً آخر، وجدتي تخرج علي تجلس أمامي على الأريكة المقابلة وقد طفت على طاولتي ساعتها وسبحتها والراديو، الأشياء التي كانت لا تفارقها وكوب فيه بعض من ماء الزهر.

ينال مني العطش الآن، لماء جدتي أن يرويني إلى أبد الآبدين، أمد يدي إلى الكوب الذي أمامي، لا شيء فيه، لا ماء ولا ماء زهر، وأنا لا أقوى على النهوض والمضي إلى المطبخ واستخلاص كوب ماء من براثنه.. يا لها من مسافة تفصلني عنه! يا له من سفر!

نهضت بعد محاولات كثيرة، مضيت خطوتين، ثلاثاً ثم أربعاً ورحت أردد " .. اللهم أنت الصّاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل".

وصلت المطبخ سالماً وعدت غانماً وقد شربت كوبا ماء من دون الزهر ومائه، وعدت بواحد ثالث تحسباً واحتياطاً من التشققات المتوالية التي أحدثتها سيجارة أبو رعد في حلقي وما حول فمي.

كانت جدتي ترمقني وأنا أجرجر نفسي وكم كنت أتمنى أن تقول لي "الحمد لله على السلامة"، لكن الموتى لا يتكلمون، كما أن لمسهم محرم شرعاً أو خيالاً لا فرق، وأنا أفكّر جدياً بتمسيد رجليها وقدميها كما كنت أفعل صغيراً وكلي أمل بأنني بهذا سأعيدها إلى المشي.

رسوت في الأريكة، ألقيت بالياطر ومضيت إلى سيجارة ثانية من سجائر أبو رعد.

هذه سجائر لا تتوقف عن المتعة، إنها سجائر ما قبل الإعدام!

حبل المشنقة ربطة عنق. الرصاصات أصابع تدغدغ الجسد. الموت أسخف ما توصل إليه الإله.

يهاجمني الوقت، يغير عليّ كما الطائرات التي أسمع هديرها اللعين بعيداً وانفجارات ما ترمي به.

في كل خمس دقائق أنظر إلى الساعة خمس دقائق، لقد وصلت السادسة والنصف، السادسة والنصف ودقيقة، السادسة والنصف ودقيقتان. أتتبع عقرب الثواني وما أن يلتقي الثانية عشرة حتى يلكز عقرب الدقائق فيخجل ويحرك نفسه بأقل ما يمكنه والحصيلة دقيقة يُسمّى بها، أما عقرب الساعات فثقيل وبالتأكيد تافه ومتثاقل أمام حيوية الثواني ودأب الدقائق.

مضيت في رحلة ثانية ووصلت بعون الله إلى الشرفة، وناديت أبو رعد، خرج علي ورشاشه في يده، لا أعرف ما قلت له، لكنه فهم عليّ ومضى مسرعاً واختفى، ثم خرج من سيارة ركنها أمام مدخل البناية.

إنها سيارتي!

حان الآن موعد الرحلة الثالثة وهي الأطول في ظل توقف المصعد، إنها أربعة طوابق.

لم تستغرق شيئاً مقارنة برحلتي المطبخ والشرفة، رافقني هاجس كثيراً ما يراودني يتمثل بالتالي: قام أبو رعد كما يفعل كل آباء الرعود (أبو صخر والجماجم والليل..إلخ) بإخفاء سيارتي لا أعرف أين؟ خوفاً من أن يجري تفخيخها، لكن ماذا لو قام هو نفسه بتفخيخها؟

طبعاً هذا سؤال مصيري آخر كما كل سؤال لا إجابة عليه!

أمضيت رحلتي وأنا أتحرى تاريخ علاقتي بأبو رعد التي لم يمض عليها أربع وعشرون ساعة وأنا أردد في أعماقي: يفعلها لا يفعلها، يفعلها لا يفعلها، ولم تكن في يدي وردة أو أي شيء مما يساعد على تباين على ماذا أقف: يفعلها أم لا يفعلها؟

المهم ها هو أبو رعد يستقبلني من دون أن أسمع ما يقوله لي، بل يظهر ما ينطقه مكتوباً كما ترجمة الأفلام.

وللتوضيح فإن أبو رعد ينطق شيئاً فأحرك عيني إلى الأسفل قليلاً فيظهر على مستوى بطنه كتابة بما قاله.

أول ما استقبلني قرأت "هلا هلا بالدكتور" ولم أحفل ببقية ما ظهر من ترجمة عند بطنه كونها جميعاً تصب في خانة الترحيب والتهليل.

وحين جلست خلف مقود السيارة قرأت "إلى أين أنت ذاهب؟" وهذا سؤال سخيف له أن يتبادر إلى ذهنه لقصر مدة العلاقة التي جمعتنا، كون آباء الرعود الآخرين يعرفون مسبقاً أنني متوجه إلى حيث يتواجد الجرحى والمصابون، لكن يبدو أنني تعمدت أن أقول له "إلى المستشفى المضاء"، وانطلقت بسيارتي من دون أن أسمع ما قاله، وحينها اكتشفت قدرة خارقة للترجمة التي أطالعها تتفوق على ترجمة الأفلام، إذ التصقت كلمة "مجنون" على زجاج السيارة ورأيت أبو رعد في المرآة يركض خلفي وأنا أزيد من سرعتي، شغّلت ماسحات السيارة ولم تذهب كلمة "مجنون".

ومعجزة الترجمة التي أبدت ثباتاً قلّ نظيره على زجاج السيارة أضيفت إليها قدرة استعادية، حيث لحقت بكلمة "مجنون" عبارة بدت لغزاً محيراً تقول التالي "أنت آخر طبيب في المدينة أرجوك لا تتهور".

ويبدو أن هذا حدث نتيجة تطورات طرأت على المعجزة بحيث ازدادت إعجازاً وتمكنتْ من ترجمة ما يجول في خاطر أبو رعد من دون أن يتلفظ به وقامتْ بإلحاقه بما تلفظ به علانية أي وصفه لي بـ "المجنون".

هل أنا آخر طبيب في المدينة؟

٣

ليست طريقاً تلك الطريق، والعجلات لا تلامس الأسفلت، والحفر والمطبات منصات لإطلاقي عالياً..نحوكِ.

كل شيء على مايرام!

قدماي ثابتتان، هناك دوّاسات تتنقلان عليها وتمضيان بي في أدغال الرعب.

احتجت استخدام "مساء الخير والأمل والرواق" مرة واحدة في الحواجز التي اجترتها للتو، وجنود تلك الحواجز كما في كل يوم يبتسمون ما أن يروا سيارتي، يفتحون الحاجز ويدعوني أمر ملقين عليّ التحيات.

حين وصلت حاجز الجنود الأخير اضطررت أن أفتح شباك السيارة، وحينها فقط قلت "مساء الخير والأمل والرواق" فابتسم الجندي وخبط على سقف سيارتي وقرأت على بطنه "بالسلامة دكتور..خذ حذرك من العرصات".

بدأت حواجز "عرصات" الجندي الأخير مع علم جديد مختلف تماماً عن علم الجنود المبتسمين الذين ألقاهم يومياً، ومع بدايتها وحتى منتهاها كان عليّ في كل مرة أن أنزل الشباك وأقول "القطة سوداء بإذن الله" وبالتالي أعبر.

وكملاحظة لابد منها فإنني على ما يبدو شهير وذائع الصيت، فمع كل حاجز من حواجز من نعتهم الجندي الأخير بـ "العرصات" كنت أقرأ على بطن الجندي الذي يتلقى مني عبارة "القطة سوداء بإذن الله" شيئاً مثل "الله معك دكتور" و"الله يحميك دكتور" و"على بركة الله دكتور" ..إلخ.

ومع استعدادي لاستخدام عبارة " النجم ساطع سبحان الله" قرأت "خذ حذرك من السفلة" على بطن الجندي المدجج بالسلاح في آخر حاجز كلمة السر فيه هي "القطة سوداء بإذن الله".

دخلت ملكوت الحواجز التي تفتح بـ "النجم ساطع سبحان الله"، ولعل السمات الأبرز لدى جنود هذه الحواجز أنهم أشد تجهماً، كما لو أن منسوب العبوس والتجهم يزداد كلما اقتربت أكثر من المستشفى المضاء، من دون تجاهل حقيقة أن شهرتي سبقتني إليهم أيضاً، فقد كنت أقرأ على بطون "السفلة" شيئاً شبيهاً بما كان يتلفظ به "العرصات" مثل "ربي معك يا دكتور" و "بأمان الله"..إلخ

تحررت من الحواجز، وها هي سيارتي تتسلق المرتفع المفضي إلى المستشفى المضاء وما الوصول إلا صبر ربع ساعة.

أشعلت سيجارة من سجائر أبو رعد ورحت أعبُّ دخانها غير مفرط بذرة دخان واحدة، وأمست الربع ساعة صبر ثانية.

سيداتي سادتي ها أنا أدع لأبواب المستشفى المضاء أن تبتلعني وتعمّدني بأضوائها التي كنت فيما مضى أرمقها من بعيد، وها أنا في جوف الضوء وممرضتان ممتلئتان ضوءاً تتقدمان نحوي.

- أهلا وسهلاً دكتور، الحمد لله على سلامتك!

أتبعهما كالمسرنم ولا أرى إلا الضوء المبالغ به. الضوء هنا متواجد بذاته كياناً مستقلاً غير عابئ بما يضيئه، ضوء يدفعك لأن تفكر بالعتمة، أن تتوق إليها.

كل شيء نظيف ومعقم ولامع بما يعين على عدم رؤية شيء، ولا تخلو الممرات التي عبرتها من حراسة مشددة. لا أقطع بضعة أمتار إلا ويطالعني حارس مدجج بالأسلحة وقد ارتدى بدلة العمليات الجراحية الخضراء، وانتعل حذاء عسكرياً عالياً، ويبدو أن غرف العمليات الحربية اتخذت من الحمامات مكاناً لها كون كل حمام محصّن بأكياس رملية.

وصلت الممرضتان وجهتهما. هبط قلبي لدرجة ملامسته قدمي، وقلت

الآن سأتعرف على صاحبة الصوت في الهاتف، المرأة الخارقة! إلا أن رجلاً فارع الطول نهض عن طاولته المترامية ومضى إلى مصافحتي بحرارة:

- أهلاً أهلاً دكتور..أخيراً شرفتنا.

أولاً: أنا لم أدع يوماً إلى المستشفى!

ثانياً: يبدو أنه يريدني أن أبقى في المستشفى لا أغادره!

ثالثاً: سيأخذني في جولة على جميع مرضى المستشفى ويشرح لي حالة كل واحد منهم.

رابعاً: لا أحتاج كل هذا المال الذي يعرضه عليّ، إنه كثير! كثير جداً!

خامساً: من الذي اتصل بي؟ أين هي امرأتي الخارقة؟ أين زوجها الذي تريدني أن أعالجه؟

رافقني فارع الطول في تفقدي لما يقرب الخمس والعشرين مريضاً، وكل منهم في غرفة فارهة تتخطى فخامة أجنحة فنادق الخمس نجوم، ولهؤلاء أن يشكّلوا كلّ من في المستشفى الذي يتسع لرفاهية أكثر من مئة مريض.

أعود إلى تعداد ما ألتقطه وأستنتجه:

أولاً: جميع المرضى ذكور رفقة زوجاتهم المتشحات بالسواد لا يظهر منهن ظفر.

ثانياً: كلما دخلت غرفة مريض جرى استقبالي بالتهليل وحمد الله على نعمه وكرمه.

ثالثاً: عليّ أن أعمل في كل الاختصاصات بما في ذلك الباسور والناسور وهناك احتمالات أن أكون طبيب أسنان أيضاً.

رابعاً: خصصوا لي غرفة قرب غرفة عمليات حربية أي حمام محصن

بأكياس الرمل، ولم أعرف لماذا هذه الحمامات موجودة أصلا وفي كل غرفة حمام أشبه بالملعب وهذا يشمل غرفتي.

خامساً: الممرضات متبرجات بما يفيض عن وجوههن، ومع بياض أثوابهن ومفاتنهن الكاملة بدا أنه يراد لهن أن يكن نقيضاً صاعقاً للزوجات.

ملاحظة١: أبقت الممرضات جذوة شهوتي العارمة خامدة، وكل ما فيهن يدعوني للانقضاض عليهن، لارتكاب سلسلة لا تنتهي من الحماقات، لكن شيئاً لم يتحرك فيّ ولم يتبدد حيادي ووهني حيالهن.

ملاحظة٢: عادت إلي حاسة السمع ما أن دخلت المستشفى.

هل أنا آخر طبيب في المدينة؟

٤

أنزل الدرج فجراً ولم يمسسني وسن ولا نوم، المصعدُ تافهٌ في هذا التوقيت، لا طاقة لي بسماع صريره المعدني، وقد كان وقع أقدامكِ في الممرات، الممرات التي آمنت لمرة واحدة وللأبد أنها تفضي، وأنت في غرفة لا حاجة لها بباب، ونافذتها لا تقوى على أن تطل.

سجينتي المعذبة، أنا مخلصك.

لم يكن لي من شهود سوى الحرس الذين استنفروا أيما استنفار ما أن خرجت من غرفتي، كانت أعينهم مصوّبة نحوي ترصد أدنى حركة تصدر عني، وإن كان كل ما قمت به أني مضيت إلى بوابة المستشفى ودخنت واحدة من سجائر أبو رعد، وعدت بالخدر والغم.

غفوت لأقل من نصف ساعة، رأيت مناماً تافهاً، كنت أستقل سيارة في مكان مقفر ناء لا أحد فيه إلا أنا، ثم فجأة ظهرت أعداد غفيرة من الناس يتزاحمون ويصخبون كما لو أنهم في سوق شعبي، واستقل أكثر من ستة أشخاص منهم سيارتي وانحشروا فيها وصرت بالكاد أستطيع القيادة، قلت لهم إنني لست متوجهاً إلى أي مكان، وأنني فقط أبدّل موقف سيارتي أريد ركنها قريبة إلى بيتي أكثر، فترجلوا جميعاً من دون أن يعترضوا أو يمتعضوا، ولم يسألني أحد أين هو هذا البيت؟ ولم أكن إلا في نفس المكان المقفر.

يُقرع باب غرفتي، تدخل ممرضة من دون استئذان، وهي تحمل صينية فيها قهوة. تضعها على الطاولة بكامل مكياجها وثوبها الأبيض الضيق المظهر بدقة مهلكة كلّ مفاتن جسدها.

- تستطيع التدخين في غرفتك دكتور!

- هل ترغب بأي شيء؟

شكرتها.

كنت مشغولاً عنها ومفاتنها بامرأتي المرتقبة، حاصراً وجودها في ثلاث غرف من تلك التي زرتها بالأمس، وفيها الحالات الأخطر وأنا متأكد من أنها واحدة من النساء الثلاث المجاورات أزواجهن وقد طمسن بالسواد، إنها في الغرفة ٢٠٩، وفي احتمال أقل في الغرفتين ٢٠٢ و٢٠٦.

اختفى الرجل فارع الطول. أمضيت جولتي الصباحية وحيداً، رافقتني ممرضة سرعان ما اختفت، بعد أن أعطتني جهازاً أشبه بهاتف محمول يكفي أن أضغط على مفتاح فيه حتى تحضر، وعلى مفتاحين إن كان من أمر خطير وعاجل.

ذهبت مباشرة إلى الغرفة ٢٠٩ وأطلت من فحوصي للمريض هناك، ولم تصدر عن المرأة المحشورة في كيس أسود نأمة أو حركة تشي بأنها على قيد الحياة. وتوالت فحوصي لمرضى الغرف الأخرى بمن فيهم مريضا ٢٠٢ و٢٠٦. أنهيت جولتي وما ظهرت امرأتي الخارقة.

داخلني اليأس مستبعداً تماماً أن تكون واحدة من الممرضات، فقد كان ابتذالهن بالقدر الكافي لجعلهن بمنأى عن مملكة الأحلام السحرية التي شيدتها حول امرأتي المرتقبة.

آخر ما أحتاجه هذا اليأس، فهو قادر بشراسة التسبب بانحسار بهجة الترقب، والإضاءة بوقاحة على ما أنا فيه:

أولاً: عدد الجنود بالبزات الجراحية في الحمام المجاور لغرفتي أكثر بكثير من عددهم في أي حمام آخر.

ثانياً: أنا مراقب على الدوام من قبل الجنود، رغم أن الكاميرات منتشرة في كل شبر من مساحة المستشفى المضاء، بما في ذلك غرفتي وكل الغرف التي دخلتها.

ثالثاً: أثناء استحمامي اكتشفت أن كاميرتين موجودتين في الحمام أيضاً.

رابعاً: الواجهة الزجاجية لغرفتي التي تطل على المدينة عازلة للصوت. وانفجارات القنابل والصواريخ التي تلقى على المدينة أطل عليها كما لو أنها في بث حي ومباشر وصامت.

خامساً: يبدو أنني بحق آخر طبيب في المدينة وقد قاموا باختطافي بسهولة لا مثيل لها لصالح مرضاهم تاركين المئات ممن هم بأمس الحاجة إلي من دون طبيب.

كيف لي أن أهرب؟ يبدو الأمر ضرباً من المستحيل!

أضغط على مفتاح الجهاز الذي في يدي تظهر ممرضة في الحال.

- بماذا تأمر دكتور؟

أتلعثم، وأنا أريد أن أسألها عن الرجل فارع الطول، ولا أعرف ماذا سأقول.

- هل تريد مقابلة القائد المناوب؟

هذا تماماً ما أريده فقد يكون من استقبلني ليس إلا القائد المناوب، قائد ومناوب!

يأتي القائد المناوب، إنه رجل آخر غير فارع الطول ذاك، ليس له من علامات فارقة إلا حمرة ثوب الجراحين الذي يرتديه، تمايزاً عن خضرة الجنود بأثوابهم الجراحية. يزداد تلعثمي وهو لا ينطق بكلمة وينظر إلي شارداً، أستجمع نفسي وأقول بأن عليّ مغادرة المستشفى لبعض الوقت ومن ثم العودة. لا يجيب! يبقى على نظرته الشاردة كما لو أنني لم أقل شيئاً، ينسحب من الغرفة ويوصد الباب خلفه.

تعاين الكاميرات منسوب حيلتي فتجده قليلاً لا يكفي للهرب، وكل ما أملكه وحدتي المتحلق حولها، أصونها بملازمة غرفتي، أقول ذلك كما لو أن لدي خياراً آخر ما لم أُستدعَ إلى غرفة مريض، ولا قدرة لي أن أغادرها وأخطو

إلى خارجها لمجرد أن أدخن سيجارة، والتدخين مسموح لي في غرفتي، ولم يتبق من سجائر أبو رعد سوى سيجارتين، آه من قلة الزاد وطول الوحدة!

أترقب النوم ولا يأتي، أستعيض عنه غارقاً في أحلام اليقظة وما من موقظ لي منها. سيناريوهات كثيرة للهرب تتناهبني، وكلها فاشلة سلفاً بمجرد أن أفكّر بالكاميرات والحراس والمرتفع الذي أنا فيه، وهي قبض الريح وما من تسلية في ذلك طالما هي مسار حتمي للإحباط، بينما تقطّعت بي السبل إلى امرأتي الخارقة، وبيت جدتي بعيد بعيد وما من مزوّد لي بكلمات السر الجديدة التي تفتح الحواجز.

مهلاً! هناك هاتفي ما زال معي! لابد من ثغرة في حراستهم المشددة، ها هو هاتفي معي، لماذا لا أتصل بأبو رعد علّه يخلصني؟

أطلب رقمه وبأقل من جزء من الثانية يجيب.

لا! لا يجيب! بل تجيب! يخرج علي صوت أنثوي.

- ما هو الرقم الذي تريد أن تطلبه دكتور؟

أتلعثم، أغمغم بضع كلمات، إنها عاملة المقسم في المستشفى، اللعنة كيف لها أن تجيب على هاتف محمول؟ أعطيها رقم بيتي الجديد بيت جدتي.

- يبدو أن الخط مقطوع! هل من رقم آخر؟

أشكرها. أغلق الهاتف. وأوقن بأنه ما من ثغرة أتسرب منها.

لقد أوصدت تماماً أبواب الأمل، وهذا النوع من الأبواب سهل الإيصاد على الدوام، ويا لها من مشقة فتح ثغرة أمل في حصار على هذا القدر من الصرامة والتجهم.

٥

يترفق الانتظار، يتخفف مما أتوق إليه، ينحسر ويختفي، ومتى نجح في ذلك.. يقع المنتظر.

كانت الشمس توزع دماءها القانية على امتداد الأفق، في محاكاة لما تصنعه القذائف والقنابل بالبشر، حين حمل لي الجهاز نداءً عاجلاً لحالة طارئة في الغرفة ٤٠١، وكعادتي مضيت كالسهم.

في حالة كهذه لا أنتظر ولا أتذكر.

كان المريض على حافة الموت، وربما هو ميت! وبينما أنا منهمك في إسعافه أمسكت يدٌ برقةٍ رجلي، وصارت تمسد ربلة ساقي. بداية ظننت أنني أتوهم، وانهماكي بالعلاج وأربع ممرضات حولي حال دون إيلاء ذلك الأهمية التي يستحقها. حين انتهيت من إجراءات نجاته وقد تحققت، كنت مستعداً لفعل أي شيء لاكتشاف اللغز المتواري تحت السرير.

تعمدت البقاء وحيداً مع المريض، وبقيت واقفاً إلى جانب السرير فعادت اليد وأمسكت برجلي وسمعت صوتا أنثوياً يأتي من تحت السرير "كان عليك أن تتركه يموت، يكفي ما عاشه".

حاولت النزول لأتعرف على من هي تلك المختبئة تحت السرير، فشدت قبضتها على رجلي وقالت حانقة "إياك أن تنزل! ألا ترى الكاميرات! اذهب الآن؟"، وفي هذه اللحظة فُتِح باب الغرفة ودخلت ممرضتان، فغادرت متلعثماً لا أعرف ما قلته ولا ما سمعته.

تلقفتني الممرات وأنا أنوء بحمل شهوة حارقة، استدعت مني جهداً خارقاً للسيطرة عليها، ورحت أصارع رغبتي الحارقة بالعودة إليها والوقوع عليها أمام الممرضتين، مانعاً نفسي من أن أستمني في الممر غير مبالٍ بالكاميرات أو أي أحد.

كل ذلك وأنا لا أعرف ملمحاً من ملامحها، إلا أنها كانت هي لا محالة، صوتها صوت من كلمتني على الهاتف.

أحسست وأنا أخرج من الغرفة ٤٠١ أنني أُفرِغت من أحشائي وجرى حشوي بدلاً عنها شبقاً ينوّع من تجلياته في جوفي وأعماقي ويتبدّى تارةً بهجةً وتارةً أخرى حزناً شفيفاً.

استيقظ كل شيء دفعة واحدة وما عاد من وقت إلا ما مرّ، وعدت إلى غرفتها، ورحت أفحص المريض العجوز. هذه المرة رأيتها ولم أرها في الوقت نفسه، متوارية في سوادها كما النساء الأخريات في باقي الغرف، إلا أنها فجأة وضعت ساقاً على ساق وأظهرت بضع سنتميترات من فخذها الأبيض اللامع المصقول، ورحت أتخبط بنفسي، ودمي يصخب في الشرايين، وعريها تحت الأسود يجتاحني، ما عدت أعرف ماذا كنت أفعل بزوجها متهتك الجسد، وكم رغبت أن أقتله أن أسحب عنه أنبوباً من الأنابيب المغروزة فيه، انتقاماً لجسدها من جسده، محققاً عدالة حرية جسدها اليانع من أسر جسده المتآكل.

لم يتجاوز ذلك بضع ثوان، عادت بعدها إلى كامل تواريها في القماش الأسود الذي غُلِّفت فيه. حرّكت رأسها جهة الكاميرا، كما لو أنها تحذرني من الإقدام على أي شيء، ولم أقدم!

عاد العجز مجدداً وجابهني، ماذا عليّ أن أفعل؟ ما الذي سيفعلونه أكثر مما أنا فيه؟ ألست الطبيب الأخير في المدينة؟ بالتأكيد لن يقتلوني!

فتحت باب غرفتي ومضيت، ثم عدت، ذرعت غرفتي جيئة وذهاباً، وتوجهت إلى الباب مجدداً، أمسكت قبضته ثم عدلت عن فتحه.

راح يُقرع الباب وأنا قريب منه، فتحته مباشرة، فإذا هي ممرضة مضمخة بمكياج خمس نساء تحمل وجبة الغداء. تركتها تضعها على الطاولة من دون أن أبادلها كلمة واحدة.

الأكل آخر ما أفكر فيه. أعبث بالملعقة ولا أرفعها إلى فمي. أزجي الوقت ساهماً في تقطيع شريحة اللحم.

يظهر لي تحت الصحن طرف ورقة.

أحرك الصحن رويداً وأنا أتظاهر بالأكل: إنها رسالة!

حملت الصحن، أبقيت المغلف تحته، وذهبت بهما إلى الواجهة الزجاجية، وهناك عالجت المغلف مديرا ظهري للكاميرا، واستخلصت من المغلف صورة وورقة:

أولاً: الصورة كانت صورتها لا محالة، وما أن وقعت عليها بنظر حتى اجتاحتني موجة اضطرابات مماثلة لتلك التي تجتاحني حين أكون على مقربة منها.

ثانياً: كانت فاتنة بحق! وأنا للأمانة عليّ أن أعترف بأنني كنت مستعداً لالتهامها مهما كانت عليه صورتها، ومرد ذلك - بعد تفكير طويل - يعود إلى أنها أولاً مشوّقة، وكل ما عشته في الطريق إليها مثير.

ثالثاً: الصورة ليست "سيلفي"، وهي ملتقطة لها من مسقط علوي. ظهرت فيها بشعرها فاحم السواد وبشرتها مفرطة البياض وعينيها النجلاوين، وهي تنظر إلى أعلى نظرة متوسلة كلها غواية، مرتدية تنورة قصيرة سوداء وكنزة حمراء تظهر نحرها عارياً إلى ملتقى نهديها.

رابعاً: حملت رسالتها التالي: "ترقّب إذا جنّ الظلام زيارتي فإنّي رأيت الليل أكتم للسرّ".

خامساً: كيف لها أن تأتي إلى غرفتي والليل لا أكتم للسر ولا هي ناجية من الحراس، والكاميرات شمس هذا المكان اللعين؟

انتظرتها، ترقبتها، وكعادته لم يترفق بي الانتظار ولم تأت. لم أقم بحركة

واحدة طيلة انتظاري لها إلا الإنصات لكل نأمة تشي بوقع خطى تقترب من باب غرفتي، ومضى الليل وجاء الفجر وبت في يوم ثان وما جاءت حبيبتي.. "يا نائماً أيقظني حبه هِبْ لي رقاداً أيها النائم!"

طار نومي وطرت معه إلى غرفتها غرفة زوجها المحتضر، وهذه المرة لم تكن متواجدة، حتى أنني تجرأت ودخلت الحمام عليّ أقع عليها هناك، لكنها كانت متوارية لا أثر يدل عليها.

وزاد ضياعي تراميا. كل ما أقوم به متثاقل مؤلم. أجرجر أقدامي في الممرات، أجني الحسرات والتنهدات، وأنجز كل ما يتطلبه بقاء معشر المرضى هنا على قيد الحياة، بمن فيهم زوجها وأنا أبذل أكثر مما في مقدوري ليبقى حياً، فموته موت سبيلي الوحيد إليها، اللعينة ابنة الستين ألف وردة عاتبتني على إنقاذه!

ما عدت أفهم أي شيء، استبدلت غيابها بالبحث عن الممرضة التي أوصلت إليّ الصورة والرسالة، و كما كل ما يحدث معي هنا لم أعثر عليها، وبدا لي أن أي تعامل مباشر وحقيقي مع أي شخص هنا يعني اختفاءه، بدءاً من الرجل فارع الطول، مروراً بالقائد المناوب، وصولاً إلى تلك الممرضة.

أتت بالغداء ممرضة أخرى، لم يكن من رسالة ولا صورة ولا أي شيء يرافق وجبة الغداء. أسدلت ستائر غرفتي بكبسة زر، فهذه الستائر قادرة تماماً على إحلال الليل الأكتم للسر، لكن أحداً لم يأت.

عدت في جولتي المسائية إلى غرفتها، غرفة زوجها المحتضر، إلا أن الغرفة كانت خاوية منها، وكنت سأسأل زوجها عنها هو الغارق في غياهب غيبوبة، شبه الميت!

هل علي أن أقتله حتى تظهر؟ هل أخنقه بكلتا يديّ؟

لم أقوَ على اقتراف ذلك، تركته في نعيم الاحتضار!

٦

ارتفعت حرارتي نصف درجة، ربما درجة مكسورة! أشعر بوهن تلك الحرارة، وها هي تصعد درجة كاملة لا كسر فيها. أنا وحيد بأكثر من الوحدة. أفارق غرفتي، أركض كالملسوع في الممرات، أستنفر الحرس، أدخل غرفتها غرفة زوجها المحتضر وما من أثر!

ارتفعت حرارتي درجة ثانية، قاربت التاسعة والثلاثين، وأمسى الوهن أشدّ من عبء رائحتها.

ألقيت نظرةً على زوجها، أشحت بنظري عنه فإذا بخمسة حراس يملأون الغرفة. هربت رائحتها، فارقتهم وغرفتها، ورائحتها مضت طويلاً معي.

آه لو معي سيجارة واحدة من سجائر أبو رعد! "حالت لبعدكم أيامنا فغدت سودا وكانت بكم بيضا ليالينا".

عدت وخرجت من غرفتي وصرخت بأعلى صوتي: "أريد سجائر"، وأغلقت الباب.

بضع دقائق وكان باب غرفتي يُقرع، وما أن أدرت مقبض الباب حتى انقطعت الكهرباء وعمّت العتمة بكل ما أوتيت من حلكة، واجداً نفسي في أحضان أنثى اقتحمت الباب.

أحاطتني بذراعيها بقوة ومضت تقبّلني، وانغمست فيها مرتجفاً هلعاً، ورحت ألتقط أنفاسي اللاهثة من أنفاسها اللاهثة، كل ما فيّ يمضي إلى ما فيها محتوية له.

فجأة انتهى كل شيء ولم نفارق الباب الذي أسندتها إليه، همدتُ وتهدّمت، وصلت حرارتي الأربعين، أبعدتني عنها ومضت في العتمة، وما هي إلا بضع ثوان حتى عادت الأضواء ساطعة، عاد المستشفى المضاء مضاءً.

أطللت على الممر، مسحته بناظري يميناً وشمالاً، لم أقع إلا على الحرس يبتسمون لي كما لم يفعلوا من قبل.

هل يعرفون ما أنا فيه وما حصل منذ دقائق؟

من هي هذه المرأة التي اقتحمت غرفتي؟

من المستحيل أن تكون هي!

رائحتها مبتذلة. هياجها قطيع يأكل الأخضر واليابس لا يميز بينهما، وما كان لامرأتي زوجة الرجل المحتضر أن تقتات على شهوتي هكذا، كانت ستحوّلني سماء وتعبرني كأسراب طيور مهاجرة، وأنا أنطفئ رويداً رويداً في هدأة انصياعي لجهات أسرابها.

تلك التي انقضت عليّ أخمدت كل الأضواء دفعة واحدة.

ألجأ إلى الحمام، أُمضي وقتاً طويلاً وأنا أدعك نفسي بالصابون، والماء الساخن يفيض ويفيض عن جسدي في بث حي ومباشر لمن يراقبني على الكاميرات.

البرد يبرحني ضرباً. أسناني تصطك.

يُقرع الباب. أتأهب لما قد يحمله من مفاجآت. لا ينتظر من في الباب، يفتحه ويرمي بعلبة سجائر ويوصد الباب من دون أن أتعرف على موصل السجائر. أتلقف العلبة من الأرض، أفتحها فإذا بورقة مطوية محشورة مع السجائر، أشعل سيجارة وأقرأ: "وتركتَ غصناً مثمراً بجماله وجنحتَ للغصنِ الذي لم يثمرِ" دخل كل دخان السيجارة في عيني، تشقق حلقي، وضرب القحط حنجرتي.

خرجت ملسوعاً بالحمى، لا أعرف أي درجة وصلت في سلم هلاكي المحتم، البرد سكن عظامي، عظامي تصطك كما أسناني.

وصلت غرفتها. كانت هناك، لا أسود إلا شعرها وعينيها، وثيابها لا تجرؤ على تورية جسدها الواثق المتوثب.

- انتظرتك طويلاً!

بكيت

- لقد مات!

سمعتها ولم أسمعها!

- أنت أمي التي لا أعرفها.

- سيخرجونك من هنا، سيأخذونك بعيداً ..

سمعتها ولم أسمعها!

تعرّت!

رأيتها ولم أرها!

رجوتها ألا تطيل وقوفها هكذا أمامي، فغمرتني.

لامستُ جسدها الوارف، لاحقت آثار الأسود عليه.

تهتُ في عتمة مفترقات الأعضاء والخلايا والأنسجة، عتمة ما أن أقربها حتى تضيء، عتمة ثم ضوء، ضوء ثم عتمة، منارة بضوء متقطع، انخطاف وانبهار.

ثم فجأة اختفى كل شيء!

حلت عليّ عتمةٌ خالصة.

٧

صحوت.

انحسرت الحمى.

آلام الرأس على أشدها، تكاد تفكك جمجمتي.

طفت عباراتها:

لقد مات! مات زوجها حقاً مات!

سيأخذونك بعيداً!

أتلفّت حولي، المشاهد متحركة.

أبتعد عنها.. أقترب.. والمسافات أبقت على كونها مسافات.

قالوا لي أغمض عينيك حتى يجفّ دمك.

فأغمضتهما.

لم يكن من نزيف، كنت مضرّجاً فقط.

من هؤلاء؟ إلى أين يمضون بي؟

حين فتحت عينيّ تعرّفت عليها، كانت على يميني، أمسيت مضرّجاً بها فقط.

لم يكن من مطر، لكن السائق شغّل ماسحات الزجاج الأمامي، وصرت منوماً بها وهي تمضي يميناً يساراً، إلى أن أغمي عليّ فتلقفتني في حضنها، والإغماءة تلك توالت معها إحدى عشرة إغماءة، ولم يكن الطريق إلا وعراً مليئاً بالحفر والمطبات، ورأسي يتمرغ بحضنها، متمسحاً بحنانها عند وردتها الهلعة.

رفعتني عن حضنها، فصرت منعكساً على زجاج النافذة.

لم تأبه بالطريق، وقد كانت صورتي المنعكسة هي الطريق ومشاهده كاملة..كما قالت لي.. وكم صدّقت!

انتزعوني منها، قاومت ما استطعت، لكنهم كانوا كثراً ومدججين، وهي لم تستمسك بي ولم تبدر عنها حركة تشي باستياء أو معارضة.

سحبوني من السيارة، وظلوا يجرجروني على الأرض إلى أن حملوني إلى سيارة أخرى، رموني في داخلها.

لم يسألوني إغماض عيني بل عصبوهما.

عدت إلى النزيف وبقيت مضرجاً.

أبقت المسافات على كونها مسافات، في ذهابي إليها وتضرجي بها، وفي إيابي إلى المجهول وحيداً لعشرات الأميال عنها، ولم يكن من مسير، بل تخبط، والعجلات تنهب الطرقات المتآكلة.

أمسى الانتظار مظهراً ثابتاً، رابضاً متأهباً في ذات المكان، أنتظر ضربة جديدة على الرأس تأخذني إلى بعيد، إلى مكان آخر محتشد بالجرحى والمصابين، والحرب على همتها ودأبها في افتراس المدينة..أنا الطبيب الأخير في المدينة.

راشق البيض السيد بديع الصفّار

١

عاد السيد بديع الصفّار يوم الخميس في تمام الساعة العاشرة وخمس عشرة دقيقة إلى بيته في ضواحي "المدينة المفرطة الحداثة والممتلئة حتى التخمة بالعادات والتقاليد التي لا يمكن تحديد متى تظهر ومتى تغيب"، بعد أن تجرّع في حانة حزينة خمس كؤوس ويسكي مزدوجة "دبل" وأصابه الغم من دون أن يعتبر نفسه سكراناً - كما حدد هو بنفسه حالته - مؤكداً لذاته في الوقت نفسه أن الويسكي فشل فشلاً ذريعاً في إدخال ذرة واحدة من البهجة المرتجاة، ولم يجد في ذلك سبباً يحول بينه وبين قيادة سيارته، واعتبر وصوله البيت من دون الإخلال بقوانين المرور السارية بصرامة في شوارع "المدينة المأخوذة بشبابها وسط هرم كل المدن المحيطة بها" دليلاً على أن أي أثر من السُكر لم يبدُ عليه.

وجد السيد بديع الصفّار سيارة بيضاء جديدة لامعة تقف مقابل باب بيته تماماً، وعانى بسببها صعوبة بالغة في ركن سيارته في الموقف المخصص لها في الفيلا المؤلفة من طابقين، وهكذا خرج من سيارته وقام بشخط طلاء السيارة البيضاء بمفتاحه، ودخل بيته وعاد ببيضتين رشقهما على تلك السيارة، ولم يكتف بذلك! بل صعد الطابق الثاني ورشق السيارة البيضاء اللامعة بأربع بيضات إضافية كانت كافية لإحلال البهجة التي عجز الويسكي عن إحلالها، ما أتاح له النوم برمشة عين على أريكة الصالون الوسيع.

استيقظ السيد بديع الصفّار على أعتاب الفجر، وأنصت بكامل حواسه

إلى الأذان "أذان جميل وعذب يدعوني للعودة إلى الصلاة التي فارقتها منذ ربع قرن"، وهبطت عليه آلام الرأس بعد الأذان مباشرة، وأحدثت قذائف الأوجاع فجوات وفتحات لا قبل للرأس باحتمالها من دون مسكّنات أخذ منها حبتين ذكرتاه بما أقدم عليه ليلة أمس فأصابه غم طبق الأصل عن غم ما قبل رشقه البيض، وصعد إلى الطابق الثاني وأطلّ على آثار فعلته والسيارة مغمورة بالبيض المتأهب ليصير مقلياً من شدة القيظ.

بدا السيد بديع الصفّار محبوساً في ساعة رملية، وراح يعامل كل ثانية كما لو أنها حبة رمل بانتظار ما سيحدث حين يكتشف جاره ما حلّ بسيارته، فهكذا فعل لا يليق أبداً بمكانته ولا منصبه ولا حضوره في هذه المدينة التي عاش فيها أكثر من عشرين سنة ذاع صيته فيها عند الأوساط العليّة السامية التي "تلامس السماء كما لو أنها سقف حمام"، ممنياً النفس أن تمضي فعلته من دون أن يفتضح أمره، وهو مستعد أن يدفع ثمن تلك السيارة كاملاً لئلا يحدث ذلك.

يمكن لمن يعرف حيثيات حياة السيد بديع الصفّار أن يعتبر فعل شخط سيارة ورشقها بالبيض رد فعل أولي على ما تعرض له في الآونة الأخيرة، ونتيجة طائشة "فشة خلق" لما عانى منه في الأشهر الثلاثة الأخيرة من أحداث أليمة.

أول تلك الأحداث كان تلقيه نبأ وفاة أخيه المراسل الحربي في مدينته الأصلية التي ولد وترعرع فيها. أخوه الذي أعلن تبرأه منه على الملأ في برنامج حواري تلفزيوني مباشر وعلى صفحات التواصل الاجتماعي، ليقطع الشك باليقين بخصوص موقفه السياسي من الحرب التي تشهدها مدينته الأصلية، مؤكداً بذلك اصطفافه مع الحق الذي يقمعه أخوه ومن يواليهم، وانتصاره لإرادة شعبه بالحرية التي تدعمها بتفان المدينة التي يعيش ويعمل فيها منذ أكثر من عشرين سنة.

إقدامه على إعلان تبرئه من أخيه كان أمراً بمنتهى السهولة، وضرورة ملحة

أمام تصريحات ولقاءات أخيه المتواترة التي تدور جميعاً حول حتمية قيام القسم الذي يناصره بسحق ومحق أولئك الذين تحصنوا في القسم الثاني، لكن نبأ وفاته أوقعه في بئر لا قرار له من الحزن، وتزاحمت في أعماقه عواصف من الندم والأسى، لدرجة أنه اضطر إلى أخذ إجازة مرضية من مركز البحوث الذي يعمل فيه، أمضاها في تعقب المحطات والإذاعات في مدينته وهي ترثي أخاه بطلاً، مستمعاً إلى كل الأغاني الوطنية التي بثت حداداً على مقتله بقذيفة وهو يغطي أحداث المعارك الطاحنة التي تدور رحاها في مدينته الأصلية منذ سنوات، وصولاً إلى أغنية كثيراً ما تكررت كان يقال عنها إنها أغنية المراسل البطل المفضلة، ومضى يبكي كلما سمعها وقد كان هو من أسمعه إياها للمرة الأولى "شاهدت أخي الكبير على الشاشة وهو يردد أن أخاه بطل الأبطال ارتقى شهيداً إلى العلا، وجعل يسأل ابن أخي المقتول وهو في الخامسة من عمره من هو والده، والولد يقول سعيد بدل شهيد وأخي يصحح له بـ شهيد".

لعن السيد بديع الصفّار الشهادة والبطولة والارتقاء والعلا وكل هذا الهراء الذي لا يعني إلا أن أخيه قد مات كرمى للحقيقة التي يريد نقلها ثلة من السفلة، ولم تفارقه صورة ابن أخيه الذي لا يعرفه "محاصراً بين مشاعر يجهلها تماماً من دون أن يعرف ما إذا كان عليه أن يحزن أو يفرح أو يخاف وما الخطأ الذي ارتكبه وهو لا يميز بين سعيد وشهيد، ولعل كون والده سعيداً أهم من كل ما قيل عنه من خطب مدبجة رعناء".

ترقبُ السيد بديع الصفّار لردة فعل جاره على ما حل بسيارته، كان مشابهاً تماماً لليوم الذي عاد فيه من إجازته المرضية بعد وفاة أخيه. حينها ذهب إلى مركز البحوث وكله تحفز وترقب وخوف من أن يتسرب إلى أحد في مكاتب المركز أنه حزين على وفاة أخيه، إلا أنه عاد إلى الحزن بحرية حين اكتشف أن أحداً لم يقدّم إليه التعازي ولم يسمع بما حلّ بأخيه أو ما كان يردده ويعاد مراراً على محطات مدينته الأصلية "كل لقطة هي طلقة".

سرعان ما عاودته المخاوف أضعافاً حين استدعاه "مدير مركز البحوث العام والشامل والماحق ورب أرباب التفكير الاستراتيجي" إلى مكتبه، وبدت رحلته نحو "المكتب الإلهي المنتمي للسماء أكثر منه للأرض" مشقة أثبتت فيها رجليه وقدميه قدرات خارقة على تحمل عبء الهلع الذي رزح تحته في طريقه إلى المصعد، ومن ثم دخوله المكتب المخمّس حيث خذله صوته وارتخت حباله الصوتية، ولولا أن طالعه رب أرباب التفكير الاستراتيجي بابتسامة لخذلته كل أعضائه من دون استثناء.

أشار رب الأرباب إلى خمس نسخ من كتاب واحد موضوعة على طاولته، فعرف على الفور لماذا استدعاه "لقد صدر الكتاب الذي أمضيت سنتين في تأليفه وها هو اسم رب أرباب التفكير الاستراتيجي عليه"، فأبدى فرحاً ملفقاً، وقبل أن يعبّر عن ذلك، سأله المدير العام والشامل والماحق أن يبدأ بتشغيل آلة الصحافة والمؤتمرات الصحافية عن الكتاب، وليعطيه نسخة موقعة منه تحمل إهداء يقول "إلى المفكّر بديع الصفّار مع أطيب التمنيات بقراءة إبداعية مثمرة".

٢

ألقى السيد بديع الصفّار عند الواحدة ظهراً نظرة على السيارة البيضاء وقد تحولت إلى مقلاة بيض، بينما غطت طبقة غير شهية من البيض المقلي زجاج واجهتها الأمامية وغيبتها تماماً، ولم يجد تزجية للوقت بأحسن من الدخول في ملكوت تخيلات جنسية حاول جاهداً فيها استبعاد زوجته السابقة عنها، إلا أنها أبت إلا أن تكون مهيمنة على المشاهد بما تفيض به من أنوثة وشبق. "أوجدتُ تسوية مؤقتة بأن أشركتُ معها تارة صديقاتها وتارة كل النساء المشتهيات بعيدات المنال وقد تناوبن على الفحش إلى أن طردتهن جميعاً وهيمنت زوجتي على خيالي بالكامل كما هي في الواقع بفتنتها القاتلة"، ومضى لتشتيت حضور زوجته الطاغي إلى الاستعانة بفيلم "بورنو" بدت فيه بطلته التي كانت تتنقل من رجل إلى آخر شبيهة جداً بزوجته السابقة، ما سعّر من شهوته والسائل المتأهب للغليان يطالب بأن يقذف طليقاً في الفضاء الحر، وكان له ذلك.

أحصى إحدى عشرة سيجارة دخنها أثناء اجتياحات المخيلة، من دون أن ينتبه أو يأبه لقراره منذ يومين بالإقلاع عن التدخين، بعد أن أكد له الطبيب أن كل ما يفعله من حمية ورياضة لن تنجيه من أمراض القلب ما لم يتوقف عن التدخين، وهكذا انتقل مباشرة من العادة السرية إلى الرياضة وهو يستعيد كيف أن زوجته هجرته واختفت بعد وفاة أخيه بشهرين، حتى أنه ظن بداية أنها اختطفت أو أن مكروهاً حلّ بها وهاتفها مغلق وكل معارفها ومعارفه لم يروها في ذلك اليوم كما أنها لم تذهب إلى عملها مع أنها خرجت باكراً جداً في الصباح، وعندما عقد العزم في اليوم التالي لغيابها على إبلاغ الشرطة عثر على رسالة منها كانت محشورة في حذائه "قالت فيها لقد مللت منك يا من تقبل بأي شيء لتكون أي شيء وأنت لا شيء واعلم أنني أهجرك إلى الأبد طلقتني أم لم تطلقني فالأمر سواء تماماً كما هذا الحذاء الذي صار صندوق بريد"، كان ذلك صاعقاً ولم يمض على زواجه

منها سوى ثلاث سنوات، خاصة أنهما احتفلا بعيد زواجهما قبل أسبوع من هجرانها، وأمضيا ليلة مترقرقة بعد عشائهما في مطعم تحت الماء شربا فيه نبيذاً فاخراً بصحتهما وصحة الأسماك والكائنات البحرية التي لا عد ولا حصر لها وهي تحيط بهما من كل جانب، دافناً في تلك الليلة حزنه على أخيه في جسد زوجته المعطاء، هو الذي لم تهن أو تفتر شهوته القاتلة نحوها "كنت دائم التوق إليها ومستعداً في كل زمان ومكان للانغماس بها والغرق بلذتها وهي تستقبلني وفق ذبذبات مزاجها، فهي كانت تستسلم لموجات تصوف طارئة لكنها متكررة بفوضى، وحينها تعتبر تأهبي الدائم للانقضاض عليها شيئاً يستدعي التحقير واعتباري كائناً سخيفاً في رأسي قضيب بدل الدماغ، ولتتبع انحسار موجات التصوف عواصف عاتية من الشبق تضربني بها بلا رحمة، أما مزاجها المتصل بإرهاصات الدورة الشهرية فهذه قصة أخرى مفتوحة على شتى أنواع التوقعات والمفاجآت فهنا يمكن لأي شيء أن يحدث، ولها أن تنعتني بما لا يخطر ببال مدحاً أو ذماً، وهي تقتل وتحيي، تنهش وتقبّل".

يمكن اعتبار لغز بقاء السيارة المنقوعة بالبيض أمام بيته على ما هي عليه وقد جاوزت الساعة الرابعة عصراً لا شيء أمام لغز اختفاء زوجته، إلا أن حسابات السيد بديع الصفّار ليست كذلك، حيث تتساوى لديه الأحداث الصغيرة مع الكبيرة بالحجم والخوف والقلق ورد الفعل، ولإدراكه الفطري ومن ثم الواعي لهذه القدرة المهلكة في أعماقه فإنه اتبع منذ انطلاقته الأولى في مشوار الحياة - وربما قبل ذلك بكثير- شعاراً يتلخص بالنأي عن أي شيء يعكر صفو حياته، متخذاً من المسار الطبيعي لكل ما حوله عقيدة تدفعه للانحياز لكل ما يضمن له خلو حياته من أي منعطفات حادة، وله أن يستشرس في اصطفافه مع كل من يضمن له ذلك، مسخراً الدكتوراه الخارقة التي حصل عليها في أرقى البلدان قاطبة، ومعرفته الواسعة وهوسه بالقراءة والاطلاع لخدمة نمط العيش المستقر عليه، بحيث تكون مواقفه الحادة، مثلما هي الحال في قصة تبرئه من أخيه لا لشيء - هذا خير مثال طالما

أنكم عرفتم به فيما سبق - إلا ليضمن الحياة الرغيدة الهانئة التي يوفرها له مركز البحوث الذي يعمل فيه، ومن ضمن بحوث المركز الأساسية والمتواصلة الحفاظ على نار الحرب الأهلية متأججة في مدينته.

"ما مررت به في الأشهر الثلاثة الأخيرة كان خللاً عارماً لما أسست له وخيانة كبرى لعقيدتي الصارمة في الحفاظ على أمجاد الحياة الرغيدة التي لم يعكر صفوها حتى وفاة والدتي منذ أكثر من عشر سنوات، وبالتأكيد وفاة والدي الذي لحقها بعد سنتين"، لكنه وفي هذا اليوم تحديداً فصل حدث وفاة أخيه وهرب زوجته عن باقي الأحداث الأخرى مثل حادثة رشق البيض الشهيرة ها هنا، معتبراً أن حادثتي الوفاة والهرب أمران لا علاقة له بهما وهما قراران منفصلان عنه تماماً "أخي قرر أن يواصل تغطية المعارك والنقاط الساخنة حتى قتل بينما قررت زوجتي هجراني لأنها لا أعرف ماذا .. على كل ربما زوجتي أمر آخر متصل بي وأنا أغلّب هوسي بها على العقل، وهذا الأخير لم يتوقف يوماً عن تحذيري بأن انغماسي بها على هذا الجنون والشبق فعل أخرق يعميني عن سماع صوت العقل أنا المحتكم على عقل كبير له صوت جهوري يهز أركاني، إلا أن همسة منها كانت وما زالت كفيلة بإخماد صوت العقل وتحويل تلافيف الدماغ إلى سهل منبسط كما راحة الكف".

تبددت الشمس وحلّ الظلام والسيارة على ما هي عليه، وهذا مدعاة للتفاؤل على الصعيد السردي بما يتيح استعراض ما حلّ بالسيد بديع الصفّار من أحداث غير تلك التي جرى المرور عليها، وهذا منوط بما سيكون عليه في هذه الأوقات العصيبة، مفرّطاً بلغز اختفاء زوجته أمام إحساسه بأنه سيكون مداناً تماماً بفعل أخرق يشوّه سمعته ويؤدي ربما إلى فقدانه عمله وبالتالي انهيار كل ما هو عليه من صفاء ذهن بينما نصف سكان مدينته مشردون في أرجاء العالم ومن تبقى منهم إما قتيل أو بانتظار القتل "أشعر أن ما يحدث معي جزء مما نال سكان مدينتي وتذكير لي بوجوب أن أستشعر شيئاً من التعاطف الحقيقي معهم بدل أن أستغل عذاباتهم في

تأسيس الأمجاد وتحصين ما أنا عليه من حياة مناقضة تماماً لما هم عليه.. أعرف أن معاناتي لا شيء مقارنة بمعاناتهم، لكنني وفي لحظات صفاء مع ذاتي التي يتمحور حولها الكون كما كل فرد في النهاية أجد أن معاناتي أهم وأعمق وأشد من معاناة أي منهم، ليس لأهميتي فقط وهذا أمر مفروغ منه، بل لأنني أنا من يعيش ما أعيشه وكل إنسان في النهاية يشعر أن معاناته هي ذروة المعاناة في الكون بعيداً عن قياسها بالحجم والوزن والوقع".

٣

استيقظ السيد بديع الصفّار في تمام السادسة وخمس وعشرين دقيقة ولم يتبادر إلى ذهنه سوى اكتشافه أنه نام أربع ساعات بنجاح منقطع النظير من دون أن يتمكن من تتبع منام واحد وقد بدت جميعها أضغاث أحلام، كما أنّ الراوي الذي هو أنا لم يتمكن من استغلال تلك الفترة الهادئة في سرد ما عاشه من أحداث لم يجر ذكرها فيما سبق، فأنا بدوري قمت باستغلال الفرصة ونعمت بأربع ساعات من النوم مثلما فعل السيد بديع الصفّار، فالراوي إنسان في النهاية، وأنا راوٍ آني، متربص بقصة شخصيتي الرئيسة، عفواً شخصيتي الوحيدة التي أتكبد عناء رواية قصتها محاولاً بكل ما أوتيت من سذاجة الإيحاء بأنني مرافق لما يحدث ثانية بثانية.

كان يمكن انتهاز فرصة نومه والحديث عن صراعه مع رغبة قاتلة هيمنت عليه في السنتين الأخيرتين وتزايد حضورها بقوة طاغية بعد هرب زوجته، وتتمثل هذه الرغبة برؤية ابنه الوحيد من زوجته الأولى الأجنبية، التي بدورها هجرته لكن بطريقة مختلفة، فهي صارحته بأنها ما عادت قادرة على العيش في هذه المدينة وأنها ستعود إلى مدينتها الأصلية مرة وإلى الأبد، محافظة على الجنين في أحشائها، وحينها وافق السيد بديع الصفّار مباشرة على ذلك كما لو أنها تحقق له أمنيته بالتخلص منها وابنها، فإصرارها على إبقاء الجنين كان آخر إسفين دُق في نعش علاقتهما، وهي بسفرها ظنت أنه سيهمّ باللحاق بها بعد أسبوع أو أسبوعين، إلا أنه لم يفعل ولم يتواصل معها إلا في الإجراءات المتعلقة بالطلاق، وليتلقى منها رسالة أخيرة تقول فيها "لا تحلم أن ترى ابنك يوماً"، كانت جملة مطمئنة له حينها، لأنه لم يكن لديه أدنى رغبة أو حتى فضول في أن يراه، وها هو الآن محاصر به يسعى بكل ما في مقدوره لمعرفة أي شيء عنه أو حتى الحصول على صورة له، وهو الآن في الثامنة عشرة من عمره، ولولا رسالة زوجته الأخيرة ما كان عرف أصلاً ما إذا كان لديه ابن أم ابنة!

ها قد رويت ما تقدّم والسيد بديع الصفّار مستيقظ، وهذا يدفعني للقول إن كل ما كتبته هنا محاولة للتمويه على ما رواه لي لأبدو قاصاً وليس راوياً فقط أو ببغاء يكتفي فقط بترديد ما قاله، بل كتابته وتحويره بحيث يأتي على لساني مع تضمينه شيئاً مما قاله لي حرفياً من باب القيام بإضفاء صدقية تتناغم مع إيراد اسمه كاملاً صريحاً وهكذا تدابير يتخذها من ينصت ويكتب ويسعى لأن يعيش ما يعايشه.

استيقظ السيد بديع الصفّار، نعم استيقظ! كما لو أنه لم ينم! ووجد كل ما خلّفه في اليقظة بانتظاره، لم يمسسه تغيير ولا طالته يد بأي تعديل، ذلك أن أول ما قام به تمثّل بالصعود إلى الطابق الثاني في بيته والإطلال على سيارة البيض الذي سيكون مقلياً للمرة الثانية مع تصاعد الشمس، وجاءت كل العوامل بدلالات تشير إلى أن ذلك سيتواصل لليوم الثاني والشمس ستصعد كبد السماء والسيارة على ما هي عليه، وبالتالي ضاق ذرعاً بأن اليوم هو يوم عطلة أيضاً، وعليه ابتكار أشياء غير العمل يتخلص فيها من انتظار مصيره المقلي على نار غير هادئة.

لم يفكر بالاتصال بأحد، ولا الاستعانة على ما يؤرقه ويحاصره بأصدقائه المتواجدين في "المدينة المغناطيسية التي جذبت معادنهم واحداً تلو الآخر" مواصلاً إيمانه الذي أمسى راسخاً بأن الصداقة عبء لا معنى له، تتأسس على ثرثرة لا طائل منها، ومشاعر مضطربة لا تفضي إلى شيء، سوى إنصاته إلى نجاحاتهم في تحويل توافه الأشياء إلى كوراث أو مغانم، وتمركز الكون حولهم، وقد أمسوا منذ زمن طويل ثقلاء الدم، خالين من أي مرح أو جديد ولا يملكون إلا التشكي بينما يكدّسون الأموال ويحرصون على رضى الزوجات ومستقبل الأولاد، مانعاً نفسه من مشاركتهم ما كان يشاركهم إياه من حياته وآماله طالما أنهم يسمعونها من باب إسقاطها على أنفسهم، ومدى تعارضها أو توافقها معهم.

قلّب الكثير من الذكريات مع أصدقائه، وما كانت عليه أحلامهم في تغيير

العالم أو جعله على الأقل أكثر إشراقاً ورحابة بالفن والجمال، وما صارت إليه من كوابيس لم يكن المرعب فيها سوى كونها آتية من حياة عادية، ومنهم من مضى إليها بملء إرادته وهم أكثر من يرطن بهذه الأحلام ويتحسر عليها، ومنهم من سحقته الحياة وقد لقنتهم دروساً مؤلمة عقاباً على مغامراتهم ونزوعهم نحو التمرد والتملص من القوالب والوصفات الجاهزة وما يجمع عليه البشر من هراء، والذين لم يجدوا في النهاية بداً من رفع راية بيضاء والتأقلم مع كل ما أجبروا عليه متمترسين خلف الصمت.

هبطت عليه عبارة "الأصدقاء خونة مؤجلون"، التي لطالما رددها صديقه الذي لم يفارق مدينته الأصلية، وليجدها عبارة زائفة لا تمت له بصلة، فلأصدقائه أن يفعلوا أي شيء إلا الخيانة، وهم متى شاء ملجأ وحصن منيع، وليمض في حفلة جلد للذات "وماذا أختلف عنهم أنا الوصولي وقد أنجزت ونجحت بكل ما يتعارض مع الأحلام والكوابيس مجتمعين".

مرّ الوقت مسرعاً كما لم يحدث بالأمس، ووجد أن خروجه من البيت سيتيح له تبديد المزيد من الوقت، والهروب من السياط التي يجلد فيها نفسه "أنا بلا خيانة مؤجلة أنا الخيانة اليومية".

وهكذا توجه إلى مركز تسوّق في "مدينة لا حياة فيها من دون تسوّق".

شرب قهوته في مقهى يتوسط بهو المركز المترامي، وأمضى جلّ وقته يراقب البشر من حوله، وهو يبحث عن ما صار إليه ابنه الذي لا يعرفه في وجوه الشباب الذي يمرون من أمامه، من دون نجاحات تذكر على صعيد الخلوص إلى صورة ثابتة له، مكتفياً بمراقبة من هم يقاربونه في العمر، محتفياً بكل ما يقومون به.

انقطع كل ذلك لدى رؤيته امرأة منقّبة تشرب العصير مع زوجها، وهي ترفع غطاء الوجه بما يتيح تمرير كوب العصير وشربه من دون أن تكشف عن وجهها، ومنع نفسه من التصفيق لها ولزوجها بأن نهض وغادر المقهى وعاد

مجدداً إلى تصفح الوجوه الكثيرة باحثاً فيها عن ملامح وجه ابنه الضائع، وبدت رغبته بسيجارة أمراً ملحاً، قادته إلى حانة في فندق متصل بمركز التسوق، حيث يمكنه أن يدخن ويشرب إلى ما لا نهاية.

نزلت البيرة التي شربها بجرعات كبيرة برداً وسلاماً على معدته الخاوية، وأيقظت دغدغة لذيذة أطلقتها أحشاؤه وهي تحتفي بارتوائها المبهج، وترافق ذلك أيضاً مع ثلاث سجائر خارقة ماحقة.

طلب كأس بيرة ثانية مضى يشربها على مهل مترافقة مع كؤوس "تكيلا" شربها بجرعة واحدة وراح يطفئ لهيبها بالبيرة، وقبل أن يغرق في السكر، حجز غرفة في الفندق الذي هو فيه، واجداً في ذلك خلاصاً من سواقة سيارته وحماية أولية من ارتكابه أي حماقات كرشق البيض مثلاً.

كان في الحانة رجال متوزعون على الطاولات الخشبية الداكنة، ثم دخلت امرأتان صار الداكن مشرقاً بهما، وراح السيد بديع الصفّار يراقبهما مستزيداً من جرعات الكحول التي يرميها في جوفه الذي أمسى بلا قاع، وبدا الغبش مهيمناً على نظره، والواضح الوحيد في المشهد أمامه هو تلك المرأتان اللتان رأى فيهما جمال الكون من جديد، هارباً من مخاوفه وذكرياته، ومركزه المرموق الذي يحاصره ويكبّله.

تمكن من حمل نفسه المخدرة بالكحول والتوجة إلى طاولة المرأتين، أخذ كرسيا من دون مقدمات وجلس عليه.

وكان هذا آخر ما تذكره.

٤

استيقظ السيد بديع الصفّار فجراً في غرفة فندق، وامرأة على يمينه وأخرى على يساره، وحاول جاهداً استعادة ما حدث بالأمس وهو يطيل تأمله بالمرأتين العاريتين، من دون أن يتمكن من تذكر ما تبع مشاركتهما طاولتهما في الحانة.

استخلص نفسه من بينهما وراح يجمع قطع ثيابه المتناثرة والمتداخلة مع ثياب المرأتين، وحين نجح بالتسرب من الغرفة، هبط إلى الاستقبال وأنهى إجراءات مغادرته بعد أن أكد له موظف الاستقبال بأنه سيتولى أمر المرأتين، واهباً إياه إكرامية مجزية.

لاحظ أن بنطاله مبقّع بما يجهله، وقميصه مجعلك لدرجة فاضحة، ومضى إلى مركز البحوث للمرة الأولى وهو على هذا النحو من "البهدلة" هو الذي لا تفارقه الأناقة وربطات العنق.

أمضى يومه في اتصالات ترويجية للكتاب، وبدا كل من اتصل بهم في غاية السرور والاحتفاء بالكتاب وإن لم تصلهم نسخة منه، لا بل إنه تفاجأ بأن العديد من الصحافيين والكتّاب قاموا بقراءات موسعة عنه واصفين رب أرباب التفكير الاستراتيجي بأنه أعظم مفكر ولد منذ عشرات السنين، وهو متأكد من أنهم لم يقرأوا الكتاب.

عاد السيد بديع الصفّار إلى بيته قرابة الخامسة عصراً ولم يجد سيارة جاره المنقوعة بالبيض بانتظاره، فانزاح ثقلها عن قلبه، وتنبّه إلى أنه لم يأكل شيئاً يعتد به منذ يومين، فكان اكتشافه ذلك إيذاناً ببدء تضوره جوعاً والمسارعة بطلب الطعام من مطعم قريب. وما أن التهم ما وصله من طعام حتى نام على أريكة الصالون في الحال.

احتاج السيد بديع الصفّار وقتاً ليجزم وهو نائم بأن طرقات الباب ورنين الجرس ليسا من ضمن ما يراه في منام، وما أن تيقّن من أن ذلك يحدث

في الواقع حتى انتفض من نومه وفتح الباب ليجد ثلاثة رجال شرطة. حاول مرة أخيرة تحرّي ما إذا كان ذلك مناماً، لكن محاولته باءت بالفشل، وها هو الآن في غرفة عارية لا شيء فيها إلا الكرسي الذي يجلس عليه.

لم يكلّمه أحد عن البيض! لم يخضع لتحقيق أو يواجه بشكوى صاحب السيارة التي يمكن حلها على جناح السرعة بدفع تعويض تافه في حساباته حتى وإن كان ثمن السيارة كاملة، وهو يعرف جيداً أن الأمر لا يتعدى ذلك، "الوقت لا يمضي ولا يتسع ولا يضيق وكل ما أتذكره هنا لا يستغرق بضع ثوان سرعان ما تغمره حيرتي وترقبي وخوفي".

تجمّد الوقت ولم يحدث ما يشي بتحركه، فصار هو يتحرك ذارعاً الغرفة جيئة وذهاباً علّه يحرك هذا الركود والخواء، والانتظار الذي صار صخرة ينوء تحت ثقلها بينما أضواء الغرفة الساطعة مسلطة عليه بوقاحة مؤلمة. كان يمضي إلى باب الغرفة يصيخ السمع ولا يسمع إلا الهدوء القاتل، وهو يخمّن ما إذا كانت الغرفة عازلة للصوت أم أن كل من في هذا المكان من الأموات؟

أتعبته كثرة المضي جيئة وذهاباً، فعاد إلى كرسيه وما أن استقر عليه حتى أطفئت الأضواء، كما لو أن من أطفأها كان ينتظره لكي يأخذ كرسيه. دقائق وهبطت شاشة بيضاء غطت الحائط المقابل له وبدأت تظهر على الشاشة صور متوالية لجثث. "هل اقتادوني إلى هنا لمشاهدة فيلم؟"

بداية هبط عليه الخوف، ولم يقو على التحديق بها، إلا أنه استجمع نفسه ومضى يدرس الوجوه ليخلص إلى ما يجمع بينها.

تشكّل لديه انطباع بأن هناك شيئاً مشترك لم يتبينه تماماً. أعيد عرض الصور من جديد كما لو أن عارض الصور يقرأ ما يجول في خاطره، وحينها لاحظ أن وجوه جميع أولئك الرجال تحمل بقعاً بيضاء كبيرة عند جباههم، بياض كالذي يلطخ به المهرج وجهه، وله أن يخفي آثار تشويه ما بدا في صورتين من الصور.

أعيد عرض الصور أكثر من عشر مرات، إلى أن صارت تحاصره، ولم يتوقف رغم صراخه بأعلى صوته "توقفوا..أوقفوا هذه الصور.. ما علاقتي بهذه الصور..ماذا تريدون مني ؟" وما من مجيب، وعرض الصور يتكرر كما لو أنه بلا نهاية، وصار يدير ظهره لها فتعاوده وتحاصره، معاوداً صراخه، مستنفداً له.

فجأة توقفت الصور وصارت تظهر على الشاشة مقاطع مكتوبة:

إن الإصرار على صياغة مظهر للإيمان هو انتصار للنفاق، إذ لا يمكن للتعبّد أن يكون أمراً مرتبطاً بالظواهر، وكلما اتسعت الظواهر والعلامات التي تميز المؤمن كلما انضوى تحت مسمى المؤمن كل منافق أفّاق. الإيمان في القلب في الطوية في الروح، ومن" سيماهم في وجوههم من أثر السجود" هم النيرون المضاءة وجهوههم خيراً وإشراقاً ومحبة، وليس من يدمغون أنفسهم كما النعاج ليمارسوا رياءهم ووجهوهم تنطق تجهماً ولؤماً وسوءاً.

ومقطع آخر:

إن علامة الصلاة على الجباه أو "نقحة" أو "دمغة" الصلاة هي مؤشر بالغ السطوع على موضة مهلكة، يراد لها أن تكون جوهر كل شيء في حياتنا، وهي صالحة لأن تكون مفتاحاً لكل ما نعيشه، تظاهر بأي شيء وافعل في الخفاء ما يحلو لك..وهكذا

وليحمل المقطع الأخير التالي:

إن كنت مدموغاً فلك الجنة، تخيل أن يكون المعيار على هذا النحو، ومن يعرف؟ ربما النفاق ولكثرته وشرعنته هو الفضيلة الكبرى؟ وعليه أفكر أحياناً بأن أستأصل تلك الدمغات بما يزرع الفوضى في الآخرة إذا ما رجحت كفة النفاق هناك أيضاً.

انتهت المقاطع، زاد الغموض غموضاً "لمن هذه المقاطع؟ يبدو أنها على علاقة بجباه الرجال في الصور!" وقبل أن يصل إلى مزيد من الاستنتاجات، ظهر أمامه هذه المرة مقطع فيديو، وشاهد فيه امرأتين ملامحهما غير واضحة بدأتا بنزع ملابسهن ضاحكات "يريدون أن يعرضوا فيلم بورنو، إنهم يدفعونني إلى الجنون"، وحين تعرّف على المرأتين ظهر هو في الفيديو عارياً، وشاهد كل ما أقدم عليه في الأمس.

انعقد لسانه، وشاهد ما شاهده بفم فاغر، وبدأ يتعرق عرقاً بارداً يشعر بكل نقطة منه وهي تشق طريقها على وجهه، ورغم ذلك لم يمتنع في أعماقه عن إعجابه بحيويته وقدراته وتجلياته التي كان يراقبها مشدوها "كيف لي أن أنسى كل هذا؟".

ما أن انتهى الفيديو حتى انطفأت الشاشة وسُحِبت، وأضيئت الأنوار كاملة صاعقة من شدتها وكثرتها "انتهى الفيلم".

فُتح الباب وتقدم منه رجل كله حيوية، ومضى مباشرة في حديثه بسرعة وإيجاز وكله حرص على ألا يضيع دقيقة واحدة من وقته "قال لي إن علي الاختيار بين نشر الفيديو أو الترحيل فاخترت الترحيل إذ لم يكن من الوارد أن أصير بطل أفلام بورنو وأخطو في عالم هذه المهنة وأنا في هذا العمر كما أن المحقق كان مستعجلاً فأجبته في الحال من دون أن أعرف سبباً لذلك واجداً أن بطولتي فيلم البورنو يجب أن تكون سبب ترحيلي وليس تخييري بينهما كوني صرت من المسيئين لسمعة المدينة وقد مثلتها في محافل كثيرة وهو قدّر إجابتي السريعة فبادر بالإجابة على أسئلتي قبل أن أطرحها قائلاً إنهم سيهتمون بتصفية أموري المالية وشحن ما أريد شحنه من دون أن ينال أغراضي أي ضرر مع وضع ملصق (قابل للكسر) عليها جميعاً بما في ذلك الكتب وإيصالها إلى أي مكان أنوي الاستقرار فيه وكنت سأنسى سؤاله عن سبب كل ما شهدته من صور ومقاطع مكتوبة أو حتى فيلم البورنو وما علاقتي بذلك عدا حضوري الفاعل والطاغي في ذاك الفيلم وحين أكد

لي أن المقاطع المكتوبة من تأليفي كما هي بطولتي لفيلم البورنو لم أتذكر متى كتبت ذلك، ولم أمنع نفسي من وصفها بالكتابات السطحية وأنني لا أكتب أشياء بمثل هذه السخافة، وهو بدوره لم يتردد في قول إن ما أعتبره سطحياً كان له كل هذا الأثر فما بالك بتلك التي تعتبرها عميقة، ولئلا أطيل عليكم فأنا كنت متهما بالتحريض كون تلك المقاطع المقتطعة من مقال طويل لي ألهمت عددا لا بأس به من الأطباء الشبان وموظفي دفن الموتى وحفاري القبور القيام باستئصال علامة الصلاة من المتوفين الذين يحملونها واضعين فوقها بعد ذلك طلاء أبيض ليزرعوا الفوضى في الآخرة وتطور الأمر وانتقل إلى شريحة أكبر تخطت الحدود إلى مدن كثيرة وصار الأمر لا يشمل الموتى بل الأحياء أيضاً وأكد لي الضابط أنهم باستبعادي يبعدون عن أنفسهم التهمة التي باتت تلاحق المدينة بأن حكومتها هي المسؤولة عن هذه المنظمة العابرة للحدود، ووصل الضابط إلى النهاية حين سألني إلى أين أريد أن أتوجه فأجبت :إلى مدينتي الأصلية فمضى يسجل ذلك إلى أن توقف وسألني مدينتك تلتهمها الحرب وسترحب بك أي مدينة تختارها، فكررت ما سبق أن قلته بسرعة تخطت المرة الأولى مراعاة لسرعته العملية أريد العودة إلى مدينتي فسجل ذلك ثم أنهى حديثه بأن سألني إن كنت أريد الاتصال بقريب أو صديق مؤكداً على ضرورة أن يحمل من أتصل به إحدى هاتين الصفتين لا أن يكون رب أرباب التفكير الاستراتيجي أو أحداً من معارفي أصحاب النفوذ لأنهم لن يفيدوني بشيء فقلت لا أريد الاتصال بأحد، ولم تمض بضع ساعات حتى كنت على متن طائرة تعيدني إلى مدينتي الأولى وكلي بهجة لم تزرني منذ زمن طويل جداً".

جزيرة الكنز

كان قاتلاً، ألا أكون أنا مقتولاً!

نجوت!

ونجوت مجدداً بأعجوبة!

في المجاعات من يفكر بالملح؟ من يسعفنا به عند التهام الجثث؟

هناك توابل جاهزة للرش على الملأ، وتحريك دموع لا تستدر عطفاً، مثلما هي المراثي جاهزة لتدريب حواسنا على الجحود والقسوة والكذب، بينما تهبط علينا أدعية من سكر، مستخلصة من حلاوة الروح وهي تصعد ولا تصعد، من طعم الرصاص ولكل منا أن يضع رصاصة تحت اللسان لئلا تنال منه ذبحة قلبية.

الرصاص أردى زوجتي وأطفالي، صعد بأرواحهم إلى سماء ولم تصلني منها أدنى إشارة تؤكد وصولهم، السماء الهشة، المتآكلة، المأخوذة ببعدها، واتصالها بالأرض لا يتجاوز ذرف الدموع التي نسميها أمطاراً.

ركضت وركضت، ثم تبدّى لي البحر ورحت أركض على وجهه كما لو أنني مسيح مبتدئ، وكذلك فعل كل من كانوا معي.

ركضت وركضت أكثر مما ركضت في ما مضى، وبدت الحدود أضحوكة، وفي أحسن الأحوال خطوطاً في خريطة مدرسية، اجترتها بسرعة الأيائل، وكم كنت جملاً فيما مضى.

عدت وخضت غمار البحر مجدداً، لم أمشِ عليه هذه المرة، وعزوت

ذلك إلى انخفاض منسوب الخوف، فأنا على ما يبدو عاجز عن أن أكون مسيحاً متى تخلى عني الهلع وابتعدت عن المجزرة.

كان قاتلاً ألا أكون غريقاً!

نجوت وغرقوا جميعاً!

أنقذني مارد أشبه بالحوت، لم يبتعلني بل تركني أصعد ظهره ومضى بي، ليسلمني لأربعة نوارس أمسك كل واحد منها بطرف من أطرافي الأربعة ومضوا بي وكل ما هو تحتي غارق بالضباب.

حين هبطوا بي، حسبت أنني هالك لا محالة، وعندما ارتطمت بأرض صلبة كنت من الناجين مجدداً.

كنت وحدي في جزيرة مترامية، واتخذت كل ما يتطلبه أن أكون روبنسون كروزو.

سرعان ما تبدد ذلك مع انقشاع الضباب، وذهبت استعدادتي الكروزية أدراج الريح، وحشود هائلة من البشر احتلت الجزيرة، وبدت نجاتي أضحوكة أمام كثرة الناجين المساوين لأعداد الغرقى في احترام لدورة الحياة ومتطلبات القدر في ترتيبه العشوائي للمصائر.

احتفى كثر بتواجدي بينهم، عرفت بعضهم ولم أعرف أكثرهم، ومضيت أرتقب معهم ظهور أبو الأنوار، الذي أعلن أبوّته للأنوار على رؤوس الأشهاد وقد كنت واحداً منهم.

لم يكن في قلبي الوادع أي رغبة في إخماد أنوار أبو الأنوار، وقد جعل كثراً مثلي يتجرعون العتمة حتى الثمالة، وها هم هنا أيضاً ما زالوا على إيمانهم بأنواره، وكم هم سذج وقد تبدّى كذبه وفاحت رائحة جبنه ونفاقه، مستمسكين بما يلفقه، مصادقين على كل ما يقوله بالصوت وهز الرأس.

لكن يبقى هؤلاء أحسن مني ومن قضى في سبيل هراء أبو الأنوار، فهم بمنأى عن دفع حياتهم أو حياة من يحبون ثمنا لإيمانهم، المهم أن من هم على هذه الجزيرة محافظون على انتمائهم للغوغاء والدهماء، وما من هو أحسن من أبو الأنوار ليضمنوا حفاظهم على انتمائهم هذا، مع تميزهم هنا بأن أنيابهم مقتلعة ومخالبهم مقلمة، وهم بعيدون عن مرمى نيران الأعداء ومدى طلقاتهم المجدي.

لم تظهر أنوار أبو الأنوار على المترقبين ظهوره، لكنه أرسل إلي يريد مقابلتي.

دخلت عليه، كان لوحده واقفاً مديراً لي ظهره، وما أن تقدمت بضع خطوات حتى التفت ضاحكاً مهللاً بأهلاً وأهلاً ثم أهلاً.

- كنت مترقباً مجيئك!

- هل كنت متأكداً من نجاتي إلى هذا الحد!

- من مثلك لا يموتون فجأة أو بسهولة، ربما تموت حين تملّ هذه الحياة.

- وماذا عن زوجتي وأولادي؟

- هم ليسوا أنت! كما أن حاجتك للمأساة حاجة وجودية.

- هذه فاجعة وليست بمأساة.

- سمها ما شئت، هي في النهاية عبء ثقيل على كاهلك يزيدك ثباتاً، ويجعل من تحليقك مشقة تقودك للتحكم بالعلو والأجنحة وجهة الرياح.

- لا أجد في فاجعتي إلا اليأس والهرب والتقوقع. ولم يعد لي من عقل صرت نهب عواطف حزينة كفيلة بتفتيتي.

- تضيق العقول بالعاطفة في الرؤوس الغبية فقط.

- كنت أعدّ الرؤوس الغبية المتواجدة هنا!

- الأفضل أن تواصل العد، أرجوك واصل العد؟

- هل أشمل نفسي!

- هذا عائد لك، إن كنت أنا من يعدّ لما شملتك!

- تقول ذلك للجميع!؟

- هذا غير صحيح!

- توهم كل واحد بأنه مميز وخاص جداً إلى أن يبدأ بقبول وتصديق كل ما يصدر عنك.

- هذا غير صحيح!

- ما هو الصحيح إذن؟

- أخاطب عقل قلة قليلة جداً ولا أكذب عليهم أبداً.

- بينما تتلاعب بعواطف وغرائز الجميع.

- هذا ما أفعله مع الرؤوس الغبية التي لن تتمكن من عدّها لكثرتها، ثم إنني لست ممن يكذبون ويصدقون كذبتهم، أنا أكذب أحياناً لكن لا أصدّق.

- وتدير ظهرك لهم متى شئت.

- نجاتي لمصلحتهم.

- وحياتهم لا قيمة لها؟

- موتهم ليس نهاية لشيء، حياتي بداية متواصلة.

- يا لك من متواضع!

- ومتفان أيضاً، لقد قبلت أن أهرب كرمى لعيونهم لئلا يفقدونني ويدخلون في التيه. لقد قبلت أن أحمل صفة الهارب عن طيب خاطر لئلا أكون مقتولاً فيتشتت شملهم. أنا أعظهم وأسدد خطواتهم وأقودهم إلى الدرب الصحيح.

- صحيح بنظرك!

- كان ذلك صحيحاً بنظرك ولا شيء حاد بك عنه سوى فاجعتك الشخصية.

- لا! أنا عرفت أنه درب ضال حين فقدت الأمل، ولم يستغرق مني الأمر سوى المضي أميالاً في درب الدم، وحين قررت الرجوع عنه تخبطت بالدماء أكثر.حين أريق دم زوجتي وأولادي هربت، لم أعد قادراً، أصبحت مشلولاً، لا الرجوع ممكن ولا المواصلة..ثم مهلاً! ألم تقل لي يوماً: عندما تبدأ بالوعظ فاعلم أنك في كارثة، لا أجدك إلا واعظاً وقحاً.

- لا أتذكر ذلك، لكن هذا ينتمي إلى الحقيقة!

- لم تشعر بأنك في كارثة؟

- أنا أستخدم العقل!

- العقل معطل. العقل لا منفعة منه في أيامنا هذه.

- ما الذي يعمل؟ ما الذي يستعمل؟

- الأدرينالين القيمة الاستعمالية الوحيدة، مستعمل بكميات هائلة في كل ثانية ويكاد لا ينفد أبداً! الأدرينالين لا يواجه المجزرة إلا بمجزرة! لتبدأ المجزرة بملاعق المطابخ، مهما كانت العتمة فإننا سنتخبط بها وفي أيدينا مشاعل تمزقهم إرباً، سنقتلهم جميعاً، سنكدس الجثث، سنصل فيها السماء، سنكون برج بابل الموتى.

- أكثر من أربعين سنة مرت ونحن مدفونون، ماذا تريدنا أن نفعل، نعم سنقتلهم جميعاً، سنمرغ آلهتهم بالتراب، قتلونا ويقتلون ونحن سنقتلهم ونحرس صعودهم إلى جهنم، إنهم السفلة ولا أحد غيرهم.

- هل تحسب نفسك إلهاً؟

- لا لست إلهاً!

- ها أنت تحتكر جهنم!

- أنت في الجنة!

- كيف لك أن تعرف؟

- هذا ساطع كالشمس، أنت إلى جانب الحق.

- هذا اليقين بات يخيفيني، وأنا أجابه يقيناً مساوياً له عند الأعداء.

- الخوف رفاهية ليست بالمتناول!

- لا يمكن أن يكون ذلك باسم وطن.

- أنت من يعظ، أنت في الكارثة، أما أنا فلا! أنا أعيش اليقين، يقين محاربة الظلم والانتصار للحرية، وليكن ذلك باسم أي شيء، باسم الله والشيطان والسفلة.

- الله والشيطان اسمان لمدلول واحد.

- ليكن..

- اليقين كارثة أيضاً!

- أنت لا ترى إلا الكارثة، تفكيرك انهزامي، أما أنا فلا أرى إلا الحرية، الحرية لدرجة العبودية لها إن شئت.

- لم أعد أصدق حرفاً مما تقول، أنت كلب افتراضي الآن، ممارستك متطابقة مع ما نثور عليه، بمدرجات مليئة بالمشاهدين وجمهرة من الأبطال يموتون كرمى لعيونهم الدامعة.. أكره الببغاوات ولا أريد أن أكون غراباً، لا أريد ان أكون عراب الدم، لا أريد أن أدفعهم للموت وأقتات على دمائهم، أكره الكلام حين يمسي ذكراً حكيماً دموياً، أكره النسخ المشوه عن نسخ مشوهة، والشعور الذي يهبط فجأة على أحد ما بأنه ملاك وكل من معه ملائكة وهو ممرغ بالوحل، أكره من يحبون الإضراب عن الطعام وهم يزدادون سمنة، أكره -

- هل هذا كل ما تراه؟

- ربما!

- ألا ترى الولادة؟ هذا هو المخاض فقط..

- لا أرى إلا قتلى مصادق على قتلهم على بياض، عرايا أمام المرايا للمرة الأولى، لكن ما من أحد يفكر بماذا علينا أن نفعل بهذا العري، كيف سنمضي كل الشتاءات المقبلة ونحن عرايا، البطولة وحدها لا تكفي، التضحيات فقط لا تكفي، إنها حفلة داعرة مجنونة بحرية التعري فقط.

- لننتصر على القاتل والقتلة أولاً ثم نفكر بما تعظني به!

- ما قلته لا يعيق ذلك!

- بل يعيق!

- حولنا القتلى إلى قتلة مثلهم بسهولة خارقة!

- المظلوم ليس قاتلاً، المظلوم لا يشبه الظالم أبداً!

- تضيق العقول بالعاطفة في الرؤوس الغبية فقط.

- أنا غبي إذن.

- أكره الغباء والأغبياء.

- تحالف مع الأعداء إذن!

- أنا أوصّف فقط!

- اسكت واخرس ولا تنطق بحرف واحد إذن!

- ها أنت إله مجدداً!

- ليكن. أنا إله وآمرك: اصمت فتصمت!

- كن فلا يكون.

- كن فيكون.

فهرس المحتويات

الوقائع العجيبة لصاحب الاسم المنقوص..... ٩
الحوادث غير اليومية للطبيب الأخير ٤٩
راشق البيض السيد بديع الصفّار..... ٧٧
جزيرة الكنز ٩٥

ترك انشاحها الطويل بالسواد أثراً على مذاقها.

وهكذا عرّفتني لذتها بمنتهى حزن ومطلع مأساة، ومع انهماكي في تفسير أثرها المدمر عليّ كنت أراها تمزج فرحاً طارئاً بحزنٍ أصيل.

كانت طريقة جلوسها على تلك الكنبة المخملية الوحيدة مدعاة للجنون، والإحساس العارم بأن عدداً هائلاً من خلاياي ترتطم ببعضها البعض، فقد كانت تُظهر قدراً ضئيلاً من جسدها المترامي، نقيضاً قاتلاً لما تركته مغموراً بالسواد.

أمسى ذلك مظهراً ثابتاً من مظاهرها، فهي إن تعرّت تماماً يبقى منها ما هو مستور، ويمسي إيغالي بها أكثر فأكثر أشد إيلاماً وإلحاحاً وقد كان مستورها لا يكشف أبداً، وإيغالي بها بلا منتهى، سواء فعلت أم لم أفعل!

بدا تخيلها خارج هذه الغرفة معجزة، أما الخروج فمغامرة لن أنجو منها حتماً.

هي قالت لي أن أبقى ولم تستخدم عبارة "إلى الأبد" فهذا ابتذال لا محالة أمام جملها المقتضبة وصوتها الذي يتبدّل يومياً.

بدا كل ما يحيط بها مستعداً للذود عنها، هي الوحيدة تماماً.

محاطة بهالات تستعر وتستكين، هالات لا دراية للملائكة بها، تصونها، تحنو عليها، وبالتأكيد تذود عنها.

ISBN 978-88-99687-30-4
9 788899 687304
المتوسط